
وديع فلسطين

شعر ناجي المضيع

بقلم وديع فلسطين

كان صدور « ديوان ناجي » بتحقيق الاساتذة احمد رامي وصالح جودت والدكتور احمد عبد المقصود هيكل والمرحوم محمد ناجي مقترنا بضجة كبرى سببها ان الديوان ، فضلا عن احتوائه على جل شعر ابرهيم ناجي لا كله ، قد إحتوى على بضع عشرة قصيدة لم ينظمها ناجي وانما نظمها الشاعر كمال نشأت وتسللت الى الديوان على سهو من المحققين ، ومنهم شقيق ناجي وصفياه ومنهم محقق وضع بحثا عن خصائص ناجي الشعرية ، وهو سهو مستغرب مستعجب مستنكر مستكره .

والديوان المنشور ، الذي سحب من التداول بعد صدوره ، قد ضم من شعر ناجي ما سبق نشره في دواوينه الفارطة وهي « وراء الغمام » و « ليالي القاهرة » و « الطائر الجريح » : كما اشتمل على طائفة من شعره المتناثر قيل انها كل شعره ، وجلية الامر انها ذرو قليل من فيض كبير تدفق من صديقنا واستاذنا العظيم الدكتور ابرهيم ناجي .

وقد عاشرت ابرهيم ناجي نحو عشر سنوات في « رابطة الادباء » التي انشاها فكان رئيسا لها وكنت وكيلا لها انوب عنه في غيابه . وكان ينشدنا في الرابطة فيضا من شعره المحفوظ مستمدا اياه لا من كراسة بل من معين ذاكرته الخصب ، وفي وسعي ان اقول في غير مغالاة انني سمعت من ناجي كل شعره مرددا اياه بلسانه. فلا يعيي احدا صادق ناجي سنوات طوالا كالصديقين احمد رامي وصالح جودت . ان يفرز شعر ناجي ويشير اليه بكل ابهام . ولهذا استغربنا صدور هذا الديوان المعيب ، ولم يكن بد من اعدامه بلا رحمة .

وفي فصل سابق (١) استدركنا شعر ناجي الذي لم يرد في ديوانه المطبوع ، واشرنا الى مواضع اخرى حملت الى الملأ شعر ناجي . واليوم نعود الى استدراك بعض جديد من شعره المطوي عسى ان تتنبه اليه اقلام الباحثين اذا عن لهم ان يدرسوا نتاج ابرهيم ناجي في غد قريب او بعيد .

والقصائد الثلاث التي نثبتها هنا نشرت في مجلة « الطالبة » الزاهرة التي تصدرها اختنا المربية الجليلة النابهة السيد منرفا عبيد الحكيم ، وهي مجلة كان ناجي يخصها بكثير من شعره ونشره ، يرتجله في غدواته وروحاته الى ادارة المجلة والى منتدى « سيدات القاهرة » الذي كنا نجتمع معه فيه بأديبات فضليات مثل المرحومة السيدة روز انطون حداد ، والسيدة وداد نقولا الحداد وشقيقة المرحوم فرح انطون ، والسيدة وداد سكاكيني اعظم اديبةعربية معاصرة بغير استثناء، والسيدة فلة فهمي بدوي مؤلفة كتاب «جورج برناردشو» والسيدة منرفا عبيد الحكيم محررة « الطالبة » والآنسة ايفا (او امينة) شاكر فهمي التي كانت تناوش الادباء برسائلها المغفلة من الامضاء ومنها رسائل ادرجها الدكتور زكي مبارك في كتابه « ليلى المريضة في العراق » دون ان يعرف اسم كاتبتها .

وفي احدى ندوات السمر هذه ابدت الجالسات ارتيابهن في قدرة ناجي على ارتجال الشعر ، فتناول قلما ونظم الابيات التالية (وهي واردة في الديوان على صفحة ١٧٨) :

سرب من الحور الفواتن كالزهور نواضر
الهمنني واحطن بي فجرى بشعري الخاطر
الهمنني وشككن بي ونسين اني شاعر
فاذا اعترفن فانني للفضل دوما ذاكر
وانا « لفلة » عارف والى « امينة » شاكر

و « فلة » هي فلة فهمي بدوي ، و « امينة » هي امينة شاكر فهمي .

اما القصيدة الاولى فعنوانها « على ضفاف النيل » ، وهي من مرتجلات ناجي وقد نشرت في عدد مايو (ايار) ١٩٤٩ من مجلة « الطالبة » ونصها :

سحر الجمال على ضفاف النيل في مشرق ، او في احمرار اصيل
والعين تنتهب المفاتن كلها وتجول بين مزارع ونخيل
طب النفوس ، وراحة العاني اذا حل الضنى ، وشفاء كل عليل

(١) راجع مقالنا « ابرهيم ناجي وشعره المضيع » في « الاديب » سبتمبر ١٩٦٠

وتعيم احلام ومتعة ناظر متنقل من رائع لجميل
ولربما بخل الزمان على الورى والنيل بالخيرات غير بخيل
وكفاه ان النفس في وقد اللظى تأوي لظل في رباه ظليل
وكفاه ان شهد الحضارة مولدا لا ريب كل حضارة باصول !
والمجد اعراق ، وهذا شاهد عن سامق من مجدنا ونبيل

والقصيدة الثانية عنوانها « حياة جديدة » وهي كذلك من مرتجلات ناجي العبقري وقد ادرجت في « الطالبة » في يناير (كانون الثاني) ١٩٥٠ واشار فيها اشارة جميلة الى التقاء المولد النبوي الشريف برأس السنة الميلادية ، وهذا نصها :

سنة اقبلت فحيوا العيدا   وابدأوا في الزمان عهدا جديدا
انظروا الفجر في حواشي الليالي   طالعا بالرجاء يحيي الوجودا
كيف لا تبسم الحياة وهذا   طالع اليمن ضاحكا وسعيدا
يوم عيسى ويوم احمد في آن   الستم على اللقاء شهودا ؟
وانظروا للضياء يلمع في الافق   وخروا لذا الضياء سجودا
وخذوا العبرة الكبيرة من ذاك   ونادوا الورى وهزوا الرقودا
وليحي القوي منا ضعيفا   ويحي القريب منا البعيدا
ولنعش عيشة المحبة والسلم   ونطو الاذى وننس الحقودا
سنة اقبلت ، عليها جلال   فاغنموا عندها العلى والصعودا
واملأوها حبا وبشرا ومجدا   واسألوا الله مثلها ان يعيدا
كل عهد على الاحياء تقضى   يتمنى اخو الهوى ان يعودا

والقصيدة الثالثة عنوانها « نشيد الطالبة » وقد نظمها ناجي في مناسبة عيد ميلاد المجلة وادرجت في فبراير (شباط) ١٩٥٠ ونصها :

ان تطلبي فنا وفكرا   ذا نشيد الطالبه
في كل صبح طالع   وبكل شمس غاربه

اني احب العلم فهو التاج يرفع كل امه
ان تحمدوا نعم الاله فان حب العلم نعمه

العلم مثل الشمس كم   دفء نجود به وظل
وجماله كالروض كم   في الروض حسن لا يمل

واليه اغدو كالطيور   طبعي التغني والبكور
والى الحياة اسير تملأني   البشاشة والسرور

ويدي لمن حولي تمد   على المحبة والوداد
اغدو على حب لهم   واعود صافية الفؤاد

نهجي السوي ومبدئي   « كل يؤدي واجبه »
ان شئتم مني النشيد   فذا نشيد الطالبه

لابي وامي طاعتي   ورضاهما هو مغنمي
وعلي ان يغدو احترامي كاملا لمعلمي

واذا ابتسمت الى الحياة   واذا رضيت بما اراه
وشكرت حظي في الوجود   فانه شكر الاله

وما زلت اعتقد عن يقين بان هناك شعرا كثيرا لناجي ضاع بعضه او كاد ، وانتحل بعضه الاخر في حياة ناجي وبعد وفاته . فقد كان من حياة ناجي الا يصرف احدا عن بابه ، فطالب المال ينفحه منه ما يكفيه ، وطالب العلاج يعطيه من طبه ما يقيمه سليما ، وطالب الدواء يوصي به صديقنا الراحل نقولا الحداد فيصرفه له من صيدليته بالمجان ؛ وكانت تلك الصيدلية تقع اسفل عيادة ناجي في شارع ابن الفرات في حي شبرا وما زالت الصيدلية تحمل اسم الحداد حتى بعد ان انتقلت ملكيتها الى غيره وبعد انتقاله هو الى عالم الخلود . اما طالب الادب فلم يكن ناجي يضن عليه بمقالة « يسترزق » بها او قصيدة يتبرع بها له فيدعي نظمها وينشرها بامضائه الكريم . وهناك « شعراء » و « شاعرات » هجروا الشعر بعد وفاة ناجي لانه كان ينفحهم لا ببدر المال بل ببدر القصد .

الا رحم الله ابرهيم ناجي ، ففي الرابع والعشرين من هذا الشهر (مارس) تنقضي على وفاته محسورا عشر سنوات . فقد اعطى الناس كل شيء ومات مقهورا مربدا مجحود الفضل مذموم السيرة . وما زلت ارى رسمه من خلال الدموع التي ذرفها في آخر لقاء لنا قبيل وفاته ، فقد كان كالطفل البريء الطاهر النقي بين ذئاب ضاريات جائعات ، فافترسته ولم ترحم طهارة طفولته ولا دموع عينيه .

القاهرة   وديع فلسطين

الثور الصريع

امصارع الثيران أي سفيه
يرضى بان يدمى جبين اخيه
شاطرته اللبن الذي غذاكما
ومضيت ترميه بكل كريه
تابى المروءة ان تخون اخا رضى
لولاه لم تمرع حقول ذويه
لو كنت اعقل منه حين صرعته
ما رحت تخطر في وشاح التيه
ما الربطة الحمراء سر جنونه
لكنه السر الذي تطويه ....
قد ثار للاعلام تخفق حوله
لما رأى فيها دماء ابيه
شرف البطولة ان تناصر اعزلا
يا ويح من ذباحه راعيه

وديع ديب

اطياف غريبة

* * *

وقفت امام مرآتي مجيبه ... صدى في القلب ينتحب نحيبه
غريب ! .. هل انا طيف وخيط ؟ ... فاي يد تحركني ... مريبه ؟
وارفع راسي الواهي بعيدا ... ... هي المرآة ... اطياف غريبه
على راسي بياض عبقري ... يدب مزمجرا ابدا ، دبيبه
يغلفني الضباب بالف سر ... ويحملني الى دنيا كئيبه
تعذبني الرؤى فيها فاغفو ... على الحانهـا الثكلى ، الرتيبه !
بلندن لا نجوم سابحات ... ولا الوانها تزهو قشيبه

على صدري صخور يابسات ... من الاهوال تحفر الف حفره
تلازمني كظلي في نهاري ... وتكويني ، بليلي ، بالف جمره
فاصعد بالبراق بلا دليل ... واجتاز السماء بكل قدره
بعقلي ، بالخيال ، بكل همي ... لانعم، في حمى العلياء ، حره

ارى روحي تهيم بكل واد ... اراها في الحقول مع العبير
تطوف فلا الفضا يثني مداها ... وتأبى ان تعود الى القصور
لها من قلبه الحاني جلال ... يلف الكون بالمسك النضير
الهي انت للدنيا سراج ... انر عيني بالضوء المنير
بك الدنيا تلوح بالف كف ... لك الدنيا ترنم بالسحور
اراك بكل عين حين ترنو ... اراك بكل لون في الزهور
تسر لي الحمائم في الاعالي ... فافهم سرها مثل الطيور

ولا يخفى علي كنى وسر ... لانك ، يا الهي ، في الاهاب
ومنذ خلقتني انت رفيقي ... وانت نهايتي بعد الاياب
سؤالي حائرا ابدا سيبقى ... وليس هناك غيرك من جواب

جامعة لندن ... ثريا ملحس

الرجل الثاني

بقلم اسكندر لوقا



لم تكن لمياء تتوقع ان يأتي اليوم الذي تقف فيه امام سمير قائلة له بتماسك:

دعنا هكذا مجرد صديقين . لا تطلب مني اكثر من ذلك .

كانت تعلم جيدا ان سمير يحبها باخلاص وينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي ينهي فيها دراسته الجامعية ليقول لها بطمانينة بالغة :

واخيرا انتهينا يا لمياء وبتنا امام قضيتنا وجها لوجه ، واصبح في وسعنا ان نبني معا عشنا الدافىء الصغير الذي طالما راودنا خياله .

ولم تكن لتتصور مقدار دهشته حين ترده خائبا حتى اطلت من عينيه وهو يجيبها بجذع :

- انني لم افهم ماذا تعنين يا لمياء . ماذا دهاك ؟ اجيبي ..

وجدت لمياء نفسها وحيدة امام الازمة التي تعصف بها وتهز كيانها كسفينة مستسلمة لمشيئة الامواج ، ومالت نحوه تقول بصوت خفيض :

اعتقد بان المعنى واضح يا سمير . سنبقى صديقين حميمين كما كنا دائما .

- وكيف يبدو لي قولك واضحا بعد هذا الزمن الطويل من المشاركة والترقب ؟

وسكت سمير كي يلتقط انفاسه المبهورة ، وقال بلهجة مسايرة :

ارجو ان تفصحي لي ما يجول في ذهنك . اكاد إتصور نفسي غريبا عنك . انني لم اعتد سلوكك الغريب هذا .. فقد كنا دائما صريحين .

وتمالكت لمياء نفسها وهي تنظر الى عينيه خمريتي اللون ، وقالت :

اعذرني ، لا استطيع ان اقبل عرضك . لن اتزوج احد .

ووجد سمير نفسه وهو في حالة اضطراب طفيف :

صدقيني انني لا افهمك . بالامس تواعدنا علي الحياة معا ، وقلت لي بانني الرجل الوحيد في حياتك وانه ما من انسان يمكنه ان يفرق بعضنا عن بعض . هل نسيت ذلك كله ؟

- لقد حصل ذلك حقا .. ولكن..

وفكرت لمياء أن الإنسحاب من حياة سمير عملية لا يمكن ان تتم بالسهولة التي تصورتها من قبل . انها لا تريد ان تظهر امامه وكانها ذات وجهين . فهي ما زالت تحبه . ولسوف تبقى السنوات الاربع التي قضياها سوية في الجامعة ، من امتع ذكريات حياتها ، وخصوصا عندما كانا يخوضان احاديثهما العاطفية الرائقة . كان سمير حينئذ يقبل على الحديث معها وكانه مقبل على استقبال دنيا رحبة ، مشوقة ، ذات آفاق ملونة بالف الف لون . وكانت هي تصغي الى حديثه الساحر وتتصور مدى سعادتهما عندما يعيشان تحت سقف واحد ، يجمعهما مصير مشترك ، ويعملان معا من اجل تحقيق هدف واحد . كانت هائمة به كما كان هو هائما بها .

ولم تكن لتتصور ان اللحظة الحرجة التي ستمر بها ستكون عنيفة بهذا المقدار ، وان موقفها من فكرة الارتباط به سيؤدي الى صعقة.. صعق الرجل الوحيد الذي اقتحم دنياها وملك قلبها وكل احساساتها ..

- ولكن ماذا يا لمياء؟ انك تحيرينني. لم هذا التردد ؟ كنا سوية دائما ، وسنبقى كذلك حتى الابد . فلا تحاولي تحطيم ما بنيناه خلال السنوات الاربع . انك لست صغيرة ، وسوف تكونين واهمة اذا ما خامرك الشك في امر سعادتنا المشتركة ..

ثم استدرك قائلا بلهجة مازحة :

ها ، ماذا تقولين ؟ وسكت منتظرا سماع ردها .

لم تكن الامور واضحة في ذهنه كل الوضوح . ومع هذا فقد حسب سمير ان ثمة تطورا غير طبيعي قد طرا على نفسيتها بعد تخرجها من الجامعة ، وان ما من عذر يمكن ان يحول دون زواجهما . صحيح أن لمياء لم تعاهده على الزواج منه . لم تقل له صراحة انها ترغب في ان يكون لها وحدها مقابل ان تكون له وحده. ولكن كيف يفسر صداقتهما المتينة خلال اربع سنوات متواصلة في الجامعة ؟ الا يشير سلوكها الى انها قد فضلته على بقية زملائها ؟ ام تراها كانت تنصب حوله شركا تريد إيقاعه فيه من دون ان يدري ؟

قرر سمير ، عندما بلغ تفكيره هذه النقطة ، ان يوجه اليها التهمة بلا ادنى مواربة :

اذن يجب ان اعرف من هو الرجل الثاني ؟ الرجل الذي كان يعيش في عقلك ويسيطر على عاطفتك عندما كنت تتلاعبين بمشاعري وتتلهين بحبي لك ؟

كيف تفسر له الامر ؟ انها تعلم مقدار شقائه ، ولكنها لا تملك ان تحدثه بما كان يجول في خاطرها . كانت تكره أن تروي كل ما تعرفه عن الرجل - الزوج . تريد ان يبقى سمير بعيدا خارج الدوامة التي تشدها الى القاع باصرار .

وتراءى لعينيها المشهد الرهيب بكل تفاصيله ، المشهد اللذي كانت تتجنب تصوره دائما ، ودوى في اذنيها صوت ابيها وهو يزمجر في وجه امها غاضبا :

لن يرتفع في بيتي صوت واحد هو صوتي . يجب ان ترضخي لهذه الحقيقة . انني لا اقبل نقاشا او اعتراضا . انني اكرر في اذنيك : صوتي فقط . صوتي فقط .

كانت لمياء في ذلك الوقت صغيرة ، ربما دون العاشرة من عمرها . وكانت تراقب المشهد بقلب واجف مضطرب،

وعينين زائغتين ملأهما الرعب . وسمعت امها تقول في محاولة يائسة للدفاع عن حقها المشروع في انيكون لها راي في قضية ما كانا يختلفان حولها :

انني لست قطعة اثاث في بيتك . كما انني لم اكن جارية فاعتقتني بدراهمك . اريد ان احيا وانا اشعر باني اختلف عن الخادمة التي تصرخ في وجهها او تشتمها فلا تملك الا ان تحني راسها امامك بخنوع . انني امراتك وسيدة هذا البيت ، ويحق لي ان اعلن عن رايي بين جدرانه على الاقل .. لا ان اطيع واطيع فقط !

كانت لمياء تعلم ان ثمة خلافاجذريا بين ابيها وامها ، ولكنها لم تكنتعرف سبب نشوئه ، فوقفت ترقب النتيجة ..

ولم يطل وقوف لمياء ، اذ سرعان ما ارتفعت يد ابيها في الهواء لتهوي على وجه امها كالصاعقة . وذاب نحيبها المكبوت في نبرات صوته المتوحش وهو يواصل ضربهابقبضتي يديه على راسها وكتفيها ومنتصف ظهرها حتى انهارت قواها وسقطت على الارض فاقدة رشدها .

كان سمير ما يزال ينتظر سماع دفاعها عن نفسها . وخيل اليه ان بقاءها صامتة لبعض الوقت ما الا لاستجماع افكارها المبعثرة فيمحاولة ما لاستحضار جواب يكون حلقة جديدة في سلسلة الاكاذيب التي خدعته بها طيلة اربع سنوات .

لماذا لا تدافعين عن نفسك ؟ لقد سألتك من هو الرجل الثاني في حياتك ؟

بماذا تدافع عن نفسها ؟

انها تعلم جيدا ان الرجال ليسوا كلهم متشابهين ، وان سمير قد لا يكون صورة مماثلة لصورة ابيها ، ولكن ما الذي يضمن لها المستقبل ؟ ثقافته الجامعية ؟ حبه الحقيقي ؟ مستواه الاجتماعي ؟ ربما كانت على خطأ وهي ترفض انسانا لم يصدر عنه ما يسيء اليها ، ولكنها متأكدة من انها لا تخطىء عندما تتذكر اقوال امها : (كان ابوك يحبني حبا جنونيا . وكان يفتديني بروحه اذا ما طلبت منه ان يضحي من اجلي ، وكان .. وكان ..)

لقد افتقدت امها منذ زمن طويل . وخسرت بذلك الانسانة الوحيدة التي لقيت منهاالحنان الصادقونعمت فوق صدرها بالدفء اللذيذ .

انها لا تريد ان تعيد سيرة الزوجة التي تحني راسها امام زوجهاحفاظا على مستقبل اطفالها كما فعلت امها من قبل . ولكن كيف تشرح له الامر وتقنعه بمخاوفها المسبقة ؟

رفعت لمياء نظرها المثقل وحدقت في وجه سمير :

تريد ان ادافع عن نفسي ؟

— اجل . انني واثقمن ان ثمة رجلا اخرفي حياتك . من هو هذا الرجل؟

— ربما لا تصدق اذا قلت لك بانك الرجل الوحيد الذي دخل حياتي .. ولن يخرج منها ابدا .

— كيف افهم تصرفاتك اذن ؟ لماذا ترفضين الزواج مني ؟

— لا انني لا اريد ان افتقد السعادة التي عرفتها بقربك ..

— ولكنك تناقضين نفسك بنفسك!

— هل تعتقد ذلك حقا ؟

— اجل . والا كيف تفسرين هذا الموقف الغريبالذي تقفينه من اقدس قضايانا المشتركة ؟

— انني لا اريد ان افقد فيكالرجل الذي احببت طوال اربع سنواتخلت هذا هو السبب .

— ان الموقف ما يزال غامضا بالنسبة الي !!

ولكن ماذا تفعل لتجلي له الموقف ؟ هلتروي له انها تكره الرجل—الزوج؟ الرجل — السيد ؟ الرجل المستبد ؟ الرجل الذي لا يريد ان يعلو صوت ما على صوته ؟ هل تقول له انالرجال كل الرجال ، يتساوون من حيثالمبدا عند هذه النقطة ؟

انها ليست منحرفة النفسية ، ولكنها واقعية تنظر الى الحياة نظرة العالم المدقق الى التجربة . لقد مرت بالتجربة وخبرتها وهي طفلة .. فهل تسمح لنفسها ان تخوض غمارها مرة اخرى ؟

التفتت لمياء الى رفيقها ، وسكبت في اذنيه قرارها الاخير :

اعذرني يا سمير . اذا شئت ، نبقى اصدق صديقين .. والا فالزمن كفيل بمحو اثر هذا اللقاء الذي جعلك تنظر الي نظرتك الى امراة لعوب ..

ثم غيرت من لهجتها وقالت له :

والان دعنا نغادر هذا المكان ... اشعر بثقل انفاسي ..

وطاوعها سمير فنهضا وخرجا الى الشارع ، وغمرها اذ ذاك شعاع الشمس .

وعندما احتوته سيارته الصغيرة الانيقة قال لها بلهجة من خسر شيئا لا يعوض :

كاننا لم نلتق . لم نقض معااربع سنوات . لم نتعاهد على الحب . باختصار كاننا لم نكن !

وبقيت لمياء صامتة . فقد غرقت في بحر افكارها ، وغرق هو في بحر افكاره : سيلوب طويلا عن الفتاة التي بوسعها ان تعوضه عن لمياء . ولسوف يتساءل دائما عن السر الذي جعلها ترفض السعادة بعد ان اصبحت في متناول يدها ، ولماذا امتنعتعن قبوله شريكا لها مدى الحياة .

واما هي فانها ستمارس اي عمل في ميدان اختصاصها ، ولكنها لن تفكر ابدا الا في المشهد الذي كان سببا في تحطيم حياتها . وكلما نظرت الى صورة امها المعلقة على احد الجدران ، او رات الى ابيها يدور في ارجاء المنزل كمن يبحث عنشيء تسبب في فقدانه ثم ندم عليه ، فانها ستذكر الرجل الوحيد الذي كان يمكن ان يسعدها وكيف قررت العيش بمفردها .. وحيدة ، كنبتة برية ستذوي في يوم من الايام دون ان تعطي ثمرا ..



اغنيتان الى زوجي

(١)

يـا حبيبـي وللوفـاء سطـور ‏ — كتبها علـى الشغاف الدهـور
فلماذا العتـاب والقلـب راع ‏ — عهدكـم والجفون مهد وثير
ولماذا الهموم والحـب حـب ‏ — عربـي منـزه لا يغـور
انت ان غبت عـن عيوني يوما ‏ — خلت اني فـي ظلمة استجير

يا عيوني في بحر عينك طيف ‏ — وشراع يومي وحـب يثير
والعيون العيون أهوى رضاهـا ‏ — وكأني عنـد الصفـاء اطير
والعيون العيون ملقى هوانـا ‏ — ومراحـي وجنتـي والمصـير

(٢)

يا سمير الروح في شقوتهـا ‏ — وشريكـي في الحياة الفانيـه
ان يكن في خاطري طال السرى ‏ — ورأيت الكز من اخلاقيـه
فالهوى باق على رغـم الضنى ‏ — وانا ابكـي عـلى ابنائيـه
طالـت الغربة والنـور ضوى ‏ — اتنـال النجم كف الساقيه

انا ان ضـاقت بي الدنيا مضى ‏ — خاطري يصنع دنيا ثانيـه .

القاهرة ‏ — **خيرية نجيب عباس**

وتوقفت سيارة سمير عند الباب الخارجي لمنزل لمياء . وكان سمير كمن خدر عقله بحيث لم يعد يقوى على التفكير . فلم يفه بكلمة واحدة . وعجب كيف نجا من حوادث الطريق المفاجئة التي يتعرض لها عادة ..

واما لمياء فقد اكتفت بـان ملأت عينيها من مشهد وجهه وهو ينظـر اليها كمن يعيش حلما لا يصدقه عقل، ثم ابتعدت عنه ، وصعدت الدرجات القليلة ، وضغطت باصبعها المتشنجة على الجرس حتى فتحت لها الخادم الباب ..

عندئذ فقط احست لمياء كما لو انها انهت قراءة كتاب لم تفهم فصوله جيدا ، ولكن كان ينبغي لها مع ذلك ان تطوي دفتيه ، نهائيا ، وبشكل ما.

دمشق ‏ — **اسكندر لوقا**


محمد رجب البيومي

خليفة داهية يتخذ اخا من اعدائه

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

ارتحل المغيرة بن ابي شعبة والي الكوفة من العراق الى دمشق ملبيا نداء امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان اذ ارسل يدعوه الى قصر الخلافة على عجل ... وكان المغيرة حازما اريبا يفكر في كل شيء ، ويستشف ما عسى ان ياتي به الغيب من طوارىء واحداث ، فاخذ يقول في نفسه ، ولماذا بعث الي معاوية دون غيري من الولاة ، أتكون وشاية سيئة طرقت سمعه فاورثته شكوكا مبهمة ، واحب ان يكشفها بالمشافهة والسؤال ، ثم ماذا صنعت بالكوفة مما لا يرضى عنه امير المؤمنين ، ايكون بعض عيونه قد نقل اليه ما ابدي من التساهل مع شيعة علي وانصار الامام ؟ لقد حاولت ان اصطنع الشدة مع هؤلاء فرايتها ريحا تزيد الاندلاع وتؤجج اللهيب ، لان البلد الذي امتحنت بولايته كان ولا يزال وكر الهاشميين ! ولا يمكن ان يذهب حب آل علي وبنيه من قلوب اهليه ما بين صباح ومساء ! ولئن اشتد عليهم بعض الولاة ليثيرون اعصارا مدمرا ياتي عليه فلا تطمئن به حياة ، ان التساهل واسترضاء القلوب ادعى الى جمع الشمل وتسكين الثوائر ، وكم سخط امامي الساخطون ، ونقم دوني الناقمون ، فمحوت الغضب المتوقد ببسمة باهتة ، او كلمة صافحة ، واقسم لئن كنت قابلت السيئة بالسيئة لانكأن جراحا تندمل على حديد ، فيفجؤني ما يسوءمعاوية من التمرد والعصيان ! ان معي رايي الناصح وحجتي البيضاء ، ولئن خالفني امير المؤمنين لابسطن له رايي عن صراحة وتصميم ، وهو بعد داهية محنك يميل الى الاغضاء كما اميل ، فهو اقرب الي مذهبا من سواه ، ولعله يشكرني على خطتي الناجحة فارجع عنه مثلوج الصدر منقطع الوسواس .

كل هذه الهواجس كانت تدور في نفس المغيرة حين تقدم الى صاحب حرس الخليفة يلتمس الاذن عليه في المثول ! ! وما كادت تقع عليه عين امير المؤمنين حتى نهض مرحبا ، وحياه محتفلا ، واجلسه الى جواره في هشاشة واقبال ، وقد بدا المغيرة فاطرى الخليفة بما يوحي به الموقف من تزلف مصطنع ، وتمدح بالكياسة والرئاسة والدهاء .. ثم هناه باجتماع كلمة الناس على خلافته ، اذ بايعه الحسن بن علي راضيا ، ومن ذا بعد الحسن ممن يابه له أمير المؤمنين ... فاطرق الخليفة كالمفكر ، ثم نظر الى صاحبه يقول : إنك يا ابن شعبة في ذكائك ودهائك لتعلم ان الحسن ليس كل شيء في الدولة ، فهناك من شيعة علي من تغلي نفوسهم بالموجدة والحسرة، ولئن بايعوا اليوم مكرهين ، فانهم يتطلعون الى يوم قريب تسقط فيه رايتي ويرتفع لواء بني هاشم كما يشتهون ، ولقد دعوتك من الكوفة لأستشيرك في هذا الأمر المحير ، فانت في موطن العلويين ترى وتسمع اضعاف ما ينقله الناقلون الي من اللجاج والخصام ، ووالله لقد فكرت في الموقف تفكير المتربص المتحفز ، فاخذت استعرض اسماء الناقمين من شيعة علي ، والمناوئين من طغام الخواوج ، فما رايت اقوى شكيمة واوسع حيلة في اولئك وهؤلاء من زياد بن ابيه ، فقد اعتصم مني بفارس وجمع من الاموال والرجال ما يفوق العد .. ولئن ظل على شقاقه للدولة ليكونن شوكة دامية تؤرق راحتي فما التذ بحياة ، واني لاعلم ان زيادا صديقك وصاحب سرك ، وانت وحدك الجدير بتوطئة الامر بيني وبينه ، ولك ان تضع من الشروط ما تختار ، لتمحو حب آل علي من قلبه ، وتجذبه الي بأمراس لا تنقطع ، واعلاق لا تبيد .

فقال المغيرة مبتسما : علم الله يا امير المؤمنين لقد فكرت خاليا في امر زياد ، فعرفت انه قوة جبارة تضر وتنفع ، وتشقي وتسعد ، ولئن أمتع الله امير المؤمنين باذعانه وولائه ليجدن منه اسدا هصورا وفارسا مغوارا ، يرمي به البركان الهائل فيغنم له الظفر والاستقرار ... فابتسم معاوية ابتسامة معبرة وقال في تطلع : اصغ الي يا مغيرة ، لقد فكرت انا الاخر في امر البصرة وما يموج بها من الشغب والثوران ، فلم اجد من يقوم لها غير زياد: فهو ادرى الناس جميعا بمضايقها الملتوية ، وامراضها المعتلة ، وقد كان صاحب الامر بها من قبل علي فجمع اهلها على طاعته ، وغرس في قلوبهم حب بني هاشم ، وقام بالادارة والجباية والخراج كاحسن ما يقوم به

مخلص غيور .. ولئن سهل الله كل شاق عسير ، فجذب زيادا الي لانامن في قصر الخلافة ، وقد آويت منه الى ركن شديد ، وحصن ذي معاقل واسوار .

فهز المغيرة راسه موافقا ورأى ان يبسط في اسباب القول بما يرضي امير المؤمنين فقال ان مهارة زياد لم تظهر ايام علي فحسب ، بل باركها عمر بن الخطاب ، وزكاها احسن تزكية على رؤوس الاشهاد ، فقد ارسله مساعدا لسعد بن ابي وقاص في حرب القادسية ، فكفاه الحساب والكتابة والخراج ، وقام بتسجيل كل صغيرة وكبيرة في الغنائم والسبي على احسن وجه يتاح ، ثم رأى سعد ان يبعثه رسولا الى عمر بالمدينة فيبشر بنصر الله ، ويدفع بغنائم العرب ، فتقدم الى الفاروق ثابت الجنان ، جرىء القول ، وشاهد عمر من ذكائه وثباته ما اكبره في عينيه ، فقال له : ارايت لو جمعت لك الناس فتحدثهم على منبر رسول الله بمثل ما حدثتني به ، اتكون ثابتا هكذا غير هياب ! ! فاطرق زياد في ادب ، ثم قال لعمر في ثقة . انني اشد هيبة لك من الناس يا امير المؤمنين، وقد حدثتك دون رهبة كما ترى ؛ فاولى ان يرسخ ثباتي امام الناس ، فجمع عمر له القوم وتكلم زياد بما اطرب وادهش واقنع ، حتى قال عمرو بن العاصي : لله ردہ من شاب اريب ، لو كان هذا الخطيب قرشيا لساق الناس بعصاه ! !

فارتاح الخليفة لما سمع ، وقال في ابتسام : لقد علمت ذلك عن عمرو ، وعلمت معه ان ابا موسى الاشعري قد ترك له امر البصرة حين كان واليا عليها من قبل الفاروق ، فشكاه الناس الى عمر ، وقالوا : ترك ابو موسى الامر لشاب حدث غير مجرب ، فاستدعى عمر زيادا من البصرة على عجل ، وناقشه في امر عمله ، فراى الحزم والكفاية والسداد ! ! ثم كتب الى ابي موسى يقول في اعتزاز عليك بزياد فلا تقطع امرا دون مشورته، فنعم النصيرعلى الاعباء!!

ثم سكت معاوية لحظة ، كمن يتذكر امورا بعيدة تواتيه بالسكون والاستجماع ، وقال متابعا : وانى لاعرف عن يقين يا مغيرة انه يكن لك المحبة والوداد ، وقد انقذك من الحد حين لجلج في شهادته عنك امام الفاروق ، فاذا ذهبت اليه واعطيته رضاي واماني فسيعتقد فيك الصدق والاخلاص .

فعض المغيرة على شفتيه ثم نظر الى معاوية في تخابث وقال: اما وقد مدحت زيادا يا امير المؤمنين بكل ما ذكرت، فهل بلغك ما تناقله الناس عنه يوم خطب بالمدينة لابن الخطاب ! !

فانتبه معاوية في اهتمام ، وقال في حزم : بلغني والله ما تعنيه ، وكنت منتظرا ان تنقله الي حين حدثتك عن صاحبك دون تمهيد يطول .

فنظر المغيرة نظرة ماكرة ، وقال : ان مثل هذا الحازم الداهية البليغ لا بد ان يكون قرشيا من اعرق البيوت ، وقد ذكر الثقات ان ابا سفيان رحمه الله قد سمعه يخطب الناس على المنبر بعد القادسية فاسر لمن حوله انه ابوه ، اذ كان غفر الله له ، قد اتصل بسمية في الجاهلية فحملت زيادا . . .

فقال معاوية في حذر: وما منع ابي رحمهالله ان يعترف بابنه حينذاك ؟

فرد المغيرة في دهاء : لعله خاف باس عمر ، فقد كان لا يقبل الخوض في الاعراض ، فاطرق الخليفة كالمفكر ثم قال بعد تردد : هو ذاك يا مغيرة ، ولئن تردد والدي في استلحاق زياد ، فوالله لاجهرن باستلحاقه مهما تخرص الناس ! ! فاذهب اليه سريعا في حصنه النازح ، وابلغه اني اخوه ، وسأعلن نسبه في يوم مجموع له الناس .

قال المغيرة ـ وقد اخذ سمت الناصح الاريب ـ وهب ان بني امية وهم رحمك وذوو قرابتك قد عارضوك ومانعوك ، فماذا تقول يا امير المؤمنين في امر يصعب عنه التراجع ؛ وتتشاجر حوله الاراء .

فقال معاوية في تصميم اكيد : انا الخليفة المطاع ! واذا اقتنعت بشيء فما ينقضه سواي . . . ثم نهض واقفا وفي وجهه صرامة وجد ، فعلم ان الحديث قد انتهى مع الخليفة فاستأذن في السفر الى زياد فاذن له واوصاه . . ثم توجه لتوه الي خراسان ، وفي نفسه مآرب وامال .

* * *

ولم يشأ معاوية ان يستشير احدا من اهل بيته فيما عزم عليه كيلا يتشعب الراي او يتزايد الخلاف بل كتم امره في نفسه ، واخذ يستدعي سرا من يجذبهم الى رايه من شهود الاستلحاق ، ليؤدوا الشهادة امام الناس دون تردد او اضطراب ، وقد اهمه هذا الامر فكان يفكر فيه تفكير الجاد المصمم ، فاذا هجس في نفسه هاجس بالتراجع والتريث قضى عليه فجاة ، دون ان يسمح له بالاسترسال واللجاج ! ! وكانه كان يوازن بين استقرار ملكه واستلحاق صاحبه ، فيجد ان الاسد المتربص بفارس دعامة قوية ؛ وركيزة وطيدة ، .. ثم انه بخراسان مقيم على حب آل علي والوفاء لشيعته ، ولعله ان امتد به الزمن ان يجمع الناس حول الحسن او الحسين فيشب ثورة هائلة تنقسم لها الدولة ويتشعب بها الامر ، وقد يقوى شانه فيقف امام معاوية وجها لوجه ، وله من تشيعه لاهل البيت ما يجمع حوله القلوب النافرة في الكوفة والبصرة وسجتان وخراسان ، فلماذا لا يسارع باستلحاقه فيضم هذه القوة الوطيدة الى عماده ، وينزعها نزعا من شيعة علي فلا تقوى على نهوض او تتحرك لقتال .. لا بد اذن مما ليس منه بد ، مهما اثار اللجاج . وادهش الناس .

وفي اصيل يوم كادح شاق قضاه معاوية في التاهب والاستعداد ، توافد الناس ارسالا الى مقر الخلافة بدمشق، وهم لا يدرون شيئا عن دعوة امير المؤمنين ، وما تتمخض عنه من احداث ، فوجدوا زياد بن ابيه يجلس عن يمين

معاوية في مقعد واحد ! ! وقد اعدت المجالس صفوفا متلاحقة لتجمع وجهاء العرب من اشراف القبائل والبطون، ثم جيء بمنبر مرتفع فنصب امام الحاضرين ، وصفق معاوية اولا فتقدمت اخته جويرية بنت ابي سفيان ، لتقف مبرقعة تتكلم ولا يرى وجهها الناس . فسالها الخليفة فجاة : ماذا تقولين في زياد ، فقالت في ثبات : هو اخي يا امير المؤمنين ، وقد حدثني والدي بذاك ! !

فاخذ القوم لهذه المفاجاة الباغتة ، ونظر بعضهم الى بعض يتساءلون بمقلهم الحائرة دون ان يفوهوا بحرف واحد ، ولكن معاوية يتطلع الى الحاضرين في تجهم ينذر بالوعيد والتهديد ، فتنخفض الرءوس ، وتنطبق العيون فما تشي باستزاء ... ثم صفق الخليفة ثانية بيديه ، فجاء المستورد ابن قدامة الباهلي ، ووقف امام القوم في عزم وتصميم فساله الخليفة : ما تقول في زياد ؟ فقال في جزاة صارمة : هو ابن ابي سفيان وقد حدثتني والدته سميه بذاك ! !

فتطلع الخليفة الى من حوله ، وتجاهل ما شاهد من الحيرة والارتباك ، ثم صفق ثالثة ، فحضر زيد بن نفيل الاسدي ، وساله معاوية كما سال من سبقه ، فقال : في دفعة واحدة ، زياد اخوك وابن ابي سفيان ، ونسبته الى عبيد كاذبة لا تحتمل النقاش .

فهز معاوية راسه ثم صفق رابعة فحضر ابو مريم السلول وقال مندفعا : اشهد يا امير المؤمنين ان ابا سفيان حضر عندي في الجاهلية ، وطلب مني بغيا ، فقلت له : ليس عندي غير سمية ، فقال ، ائتني بها على قذرها ووضرها فاتيته بها فخلا معها !!

فتجهم وجه زياد فجاة، وبدا عليه الغضب، وكان من قبل مرتاحا لما يسمع ويرى ، ثم قال : مهلا يا ابا مريم انما جئت شاهدا لا شاتما ! ! مالك والقذارة ارشدك الله !

فنظر معاوية الى ابي مريم كمن يستنكر عبارته ، ثم تطلع الى القوم فوجد الدهشة الحائرة تضطرب في الوجوه ، فلم يعبأ بما شاهد ، ثم صعد لتوه الى المنبر فقال : « الحمد لله الذي احق الحق وازهق الباطل ... الا وان زيادا اخي بشهادة الشهود ، وقد صححت الان نسبته على مشهد منكم ، فهو من الان زياد بن ابي سفيان والله على ما اقول شهيد » .

ثم نزل ودعا زيادا ليتكلم ، فتقدم في حيرة وصعد الى المنبر فقال : « الحمد لله الذي احق الحق وازهق الباطل ولئن كان ما شهد به الشهود حقا فالحمد لله ؛ وان يكن باطلا فقد جعلت بيني وبينهم الله وهو على ما اقول شهيد »

ونزل لياخذ مكانه جوار الخليفة ويفيض معه في حديث طويل ، حتى اذا طال الامد اخذ الناس يتفرقون متعجبين، وقد بلغ الغضب بعبد الله بن عامر امير البصرة ــ وكان في الحاضرين حدا بعيدا ، وهو من وجهاء بني امية وله دالة ومكانة وفي تاريخه بطولة واستبسال ، فصاح في الناس على غيظ ، لقد هممت ان آتي بقسامة من قريش يحلفون بالله ان ابا سفيان لم ير سمية ابد الحياة، واخذ الناس يفيضون فيما سمعوه وهم اقرب ما يكونون الى الاستخفاف والتهكم حتى اصبحت دمشق جميعها واصقاع العرب من ورائها اصداء تتردد بما كان من امر معاوية وزياد ... وبات العرب منهما في تساؤل مريك ، وتعجب غريب .

* * *

خلا معاوية الى اخيه الجديد في قصر الخلافة ، فاثنى عطرا على سياسة زياد ، ومواهبه ، وقال في دهاء خادع ــ كمن يظهر اغضاءه عن ماضيه ــ ان اخلاصك لعلي وتفانيك في الولاء له كان دليلا على اصالة معدنك ورصانة اصلك، وقد احببت ان انتفع بقرابتك فاظهرت ما خشي ابوك ان يعلنه ، وضربت صفحا عما يقوله الناس من هراء ، ولست ارجو غير ان احل لديك محل علي » !! فقال زياد في استعطاف : لقد اخلصت العمل لعلي دون رحم ماسة او واشجة قريبة ، ولكنك اخي القريب الحبيب ، وقد ارتبطت بك ارتباطا باركه الله وشهد به الناس ، وليكونن وفائي لك ابر واعظم .. واني ــ وايم الله ــ لاعلم ما تحملت من المصاعب في اذعان من حولك من بني امية لامري معك ؛ ولم تكن فيما قمت به من الاستلحاق غير جريء ندب يتحدى العقبات . ويذلل الصعاب ، ولارينك من سياستي في العرب ما تقر به عينك ، وتستقر عليه دولتك ، وسانهي القول في ذلك غير مسهب ، لادع العمل وحده يقوم لديك ببرهان اكيد لا يقبل طعن طاعن ، او افتيات دخيل ! فتبسم معاوية ابتسامة زاهية ، وقال : هذا ما اتوقعه منك ، وستلي من الان امر البصرة ، وانت ادرى الناس بثوراتها المتعاقبة ، ودواهيها المتأصلة ، فبين اهليها من شيعة علي من لا تطرف لهم عين ، او تستقر بهم جنوب ، وهي مع ذلك ميدان فسيح للخوارج تتراكض في حلبته جيادهم وتسل حرابهم ، مما احالها اتونا يشتعل ، وسعيرا يلتهب ، ثم هي مع هذا وذاك مراد للصوص والمتبطلين ممن لا يفيئون الى خلق او يعتصمون بدين ؛ واذا كانت البصرة قد جمعت شذاذ الشيعة والخوارج والمارقين فليس بها اموي واحد يجمع حوله فئة من ذوي احسابنا وابناء ولائنا ، وارجو ان تكون انت هذا السيد الذي يغرس شجرتنا الذاكية اكرم مغرس وانماه ... ولا ازيدك علما بما تصنع فلن ابلغ برايي بعض ما لديك . فهز زياد راسه موافقا مؤمنا .. ثم قال في حزم : لئن كان امير المؤمنين قد احاط خبرا بما يضطرب في البصرة من اهواء وشيع فاني اشهد الله لاجعلن هذا البلد الثائر مثابة امن ، وقاعدة استقرار ، ومن اعياه به داؤه فعندي دواؤه، ومن ثقل عليه راسه فساريحه منه، ولن يجهر مفرض بكلمة سوء الا قطعت لسانه! على اني لست متحجبا

عن طالب حاجة ولو اتى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن ابانة ، ولآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ، ووالله لو فقد حبل بيني وبين خراسان لعرفت آخذه وشددت عليه النكير .

قال معاوية متهللا : بارك الله فيك يا اخي فسر على بركة الله ، حيث يتألق سلطانك وتزدهر امانيك ... وسارت الركاب تخب بزياد الى امارته ، وكان من هواجسه المتشاجرة في موج لا يهدأ ، فهو يفكر كيف يلقى الناس في البصرة بنسبه الجديد ، وانهم ليعرفون عن ابيه عبيد كل صغيرة وكبيرة : الم يبلغ غطاء زياد الفين من الدراهم ذات يوم من الايام فيشتري عبيد اباه بالف ويعتقه امام البصريين ؛ ويقول للملأ : هذا ابي وقد احببت الا يكون عليه سلطان فيتحدث الناس عن ذلك مسهبين ! ثم ماذا يصنع اذا غضب عليه اخوه من سمية واذاع في الناس ان نسبه في امية دخيل لصيق ! ايكابد الامير حربا من الاعداء وحدهم أم من الاولياء والاعداء ؟ على ان الادهى من ذلك ان البصريين يعلمون جميعا ان هواه علوي ، وله بشيعة بني هاشم صلة واشجة ، ومحبة اكيدة ، وهذا حجر بن عدي كبير الشيعة يقاسمه المحبة ويشاطره الوداد ، أفيصبح ما بين يوم وليلة خصما لدودا لقوم ساقاهم الحب وعاقرهم الولاء .. واين يخفي وجهه من العيون التي تتطلع اليه في دهشة بنظراتها الحادة فتحدثه بما لا يستطيع ان يؤاخذها عليه ، وان لها لصوتها جهيرا تعرفه القلوب ، وان لم تنصت اليه الاذان .. ماذا يصنع في الابتسامات الهازئة التي ترتسم على الشفاه حين ينظر اليه القوم مستنكرين ساخرين ، تلك هي هواجس زياد تأخذ عليه السبيل فما تدعه يهنأ بنوم في رحلة او يستمتع بأفق في مسير ! على انه في هذا الصخب المشتجر من الظنون يتذكر معاوية اخاه الجديد ، فيقول في نفسه : اليس معاوية صاحب الامر والسلطان وقد رضي بما اتوجس منه واهاب ، واذا كان الخليفة في دمشق لم يعبأ بما يقوله الناس ، وانه ليقرأ في عيونهم ما اقرأ من سطور الريبة والاستنكار ، وانه ليلحظ في ابتساماتهم ما الحظ من بوارق الشماتة والاستخفاف ، وهو مع ذلك ثابت لا يتزحزح ولا يميد ! أيكون معاوية اوسع مني افقا واحكم حيلة ! ولم لا اكون مثله مترفعا عن السفاسف ابيا على الصغار ؟ اجل ، ساكون مثل الخليفة حازما مترفعا ، وساعادي اصدقاء الامس عن سيطرة واستعلاء، ولتشهدن مني البصرة رجلا غير الذي كان ! ان ابا سفيان ابي وقد شهد بذلك الشاهدون عن صراحة ويقين ، فلانتسب الى هذه الدوحة السامقة، ولاخلع عني ثيابا رثة طالما استحييت منها اذا خلوت ، واذا كان الاسلام لا يفرق بين صغير وكبير من الاسر ، ورفيع ووضيع من الآباء ، فان العصبية الجاهلية التي انتشرت اليوم بين القبائل قد نبذت تعاليم الاسلام واصبحت تجعل من الانساب الرفيعة والآباء الغطاريف ملاذا يحتمي به الفاخرون، ويكترث له المتباهون! لقد كان الفخر بالاسلام والعمل الصالح وخشية الله بضاعة نافعة ايام علي بن ابي طالب ، اما وقد ذهب الى ربه وتبدل الناس غير الناس فلاترك ديدن الذاهب الغارب، ولازه بما يشمخ به الشامخون ، ولن يستطيع احد ان يجاهرني بمخالفة، ومعي سيفي وحولي جنودي واعواني. فليطو ضلوعه من شاء ان يطويها على حقده وغيظه حتى يدرج في اكفانه.. ولاصبح سيد العرب بالعراق ، وعاهل امية بالبصرة وخراسان !

وما لبث ان دخل البصرة دخول الفاتح المدجج : وبدأ فاعلن على المنبر نسبه الصريح الى ابي سفيان ، وندد باولياء بني هاشم واشياعهم من الشذاذ والعصاة ، ثم ثنى خطبته فاتى بكلمة بتراء ، كلها وعيد وتهديد ، وشفع القول بالعمل فعمد الى صديقه حجر بن عدي فساقه مكبلا الى دمشق ليلقى مصرعه شهيدا محتسبا ، مع رهط من صحابته الابرياء ! ورأى الناس ان الدنيا لا تبقى على حال ، لقد كانت تغير الطبائع والاخلاق ، فاصبحت - واعجبا - تغير الآباء وتوشك ان تغير الامهات .

ويسمع معاوية في دمشق انباء البصرة ، فاتاه من سيرة اخيه ما اعجبه وابهجه ! فاخذ يراسله مادحا مشجعا ، وشاء ان يعبر عمليا عن ارتياحه الجم لسيرته في الحكم ومسلكه مع الاولياء والخصوم فضم اليه اليمامة مع العراق ! وجمع في قبضته ما فتح من الهند والبحرين وعمان فاصبح زياد بن ابي سفيان الرجل الثاني في الدولة بعد امير المؤمنين .

واستاذن عبد الله بن عامر على الخليفة ذات مساء بدمشق ، فاذن له في غضب وامتعاض ، وما كاد يصافح امير المؤمنين ويأخذ مجلسه الى جواره حتى نظر اليه في ضيق وقال محتدا :

ما هذا يا عبد الله ، أتخوض في نسب زياد مع الخائضين ! !

فرد عبد الله في ثبات شجاع : لقد ادخلت بيننا يا امير المؤمنين من لا نعرف من الناس ، فاذا كنت لا تحرص على ابي سفيان ، فاني على امية جد حريص !

فقال معاوية في غضب كظيم : لن يحرص احد على سلطان امية كما يحرص زياد ، ووالله لو وجدت في بني ابي ، اميرا كزياد يهابه العراقيون ما ركبت هذا المركب الوعر ، افانتم منتهون !

فتراجع ابن عامر قليلا .. ثم قال في ملق متزلفا : نحن منتهون ان شاء الله الى ما رغب امير المؤمنين ولكن، ما نصنع في السنة حداد تأخذنا بقوارصها الداميات !

فنظر الداهية متأملا صاحبه وقال في همس هادىء :

(التتمة في صفحة ٣٣)

الفيوم محمد رجب البيومي

لـــــماذا ؟

لماذا نسخر اليوم من الانغام والاحلام
ونضحك ان سمعنا الهمسة الخضراء ،
ترجفها رياح الشوق ،
ترسلها مع الانسام
وتسلمنا حماقات صغيرات لدان العود
خجولات رقيقات كهمس الطائر الفريد
ظلال الورد خداها
وعطر الياسمين الغض بسمتها ورياها
غير الضعف والتسليم
وغير ثمالة حمقاء
من عهد الهوى الطائش
وغير غرارة الاطفال
جزناها لعهد العقل
وما الايمان الا ملجأ العاجز
ونحن القوة اكتملت ،
ونحن الفضل

لماذا قد تجمدنا وحطمنا جناحينا
وفي الطين العميق الغور
غصنا ملء ساقينا
اصابعنا الغلاظ السود
مزقت الندى الشفاف
ونبت الياسمين الغض
قدت زهره الهفاف
ولم ترفق بنور البدر
منداحا على الآفاق
فهتكت الضياء الناعم الرقراق
ولمت لؤلؤات الانجم الزهراء ترميها
ببئر ما له قاع
تغوص تغوص حائرة
فلا حول ولا باع
وتسمع في ظلام الليل
رنة قلبها المصدوع
تخبط في ظلام البئر
فيلطمها الجدار الاسود الغائر
ويخنق نورها الخفاق في جبروته الساخر
وتهمى في السماء دموع ...

لماذا قد تجمدنا وحطمنا جناحينا
وفي الطين العميق الغور
غصنا ملء ساقينا
وكلمات غريرات منداة بدمع الحب ...
لم تسلم من الاجحاف ،
لم تسلم من اللعنة
طرحناها ، سحقناها ،
ذروناها بلا رحمة
وقلنا ما الحنان الحلو

لماذا قد تجمدنا وحطمنا جناحينا
وفي الطين العميق الغور
غصنا ملء ساقينا
....
ولكن ، ما الذي يحدث لو انا تغنينا
بأوهام لنا كانت ، بأحلام تمنينا
وماذا لو بنينا
في زوايا قلبنا ظلة
ولو انا عرشناها
بنبت الياسمين الغض والبلاب
واطلقنا الصبا طفلا ،
يغنى في حناياها
ومن ازهارها الفجرية البيضاء يهدينا
ويضفرها لنا عقدا ...
ولو ان النجوم البيض
مدت للصبا خيطا
لينسج من غلائله الشفيفة
للهوى عشا
ويجدل سلما
يرتاد في اجوازه الآفاق
فيسرق من ضياء البدر
أوشحة تغطينا
ومن قطر الندى كاسا ،
مشعشعة ترونا
فحول الظلة الخضراء
جدب القفر لن يبرح
ولذع الشمس والاشواك
لن يهجر وادينا

القاهرة — **ملك عبد العزيز**

اخذ (بكر) خرقة بالية ، وبدا يمسح بها زجاج النافذة المتعرق بهدوء ، ولم يلبث ان اقترب برأسه من الزجاج ، يلقي بنظرته الفاحصة على السوق المعتم . ثم عاد الى وضعه وهو يترنم باغنية شعبية ، ويداه فوق كانون من الفخار ، تتعانقان بين حين واخر على دفء جمراته المتناثرة باعتناء بالغ فوق الرماد النظيف .

لا شيء في هذا السوق ... ، السكينة تلفه بأيد حانية ، والظلام يغطيه سميكا ، وثمة اوراق بيضاء يتلاعب بها الهواء البارد بخفة ورشاقة فتتناثر حول الكوخ الصغير راقصة بفزع .

فكر بكر وهو في كوخه ان يأخذ دقائق من الليل ينام فيها كما ينام الناس وراقت له الفكرة ، خاصة وانه قد اطمأن بعد نظرته المتفحصة تلك ان لا شيء في السوق الطويل غير الصمت والهدوء . اتكأ على حافة الكرسي واناخ رأسه بتثاقل مسدلا جفنين غليظين ، وحاول ان يغفو ولو قليلا ، ولكن شيئا غامضا اخذ ينعق في اذنيه فلا يستطيع على الصوت نوما ... وشعر فجأة بألم يطرق رأسه بعنف ولم يدر ما الم به ، فأسرع يفتح علبة الاسبرو التي اشتراها ظهيرة يوم امس ليتناول منها قرصا ويبتلعه دونما حاجة الى كوب ماء يدفعه الى جوفه ... وبعد لحظات من الالم والقلق بدا يشعر بارتياح ينساب على جسمه بعطف ، فعلت وجهه بسمة خافتة ... لن يستطيع النوم الان ... انه ليس في بيته هو حارس ، حارس ليلي ، عمله ان يراقب ، وان يفتح عينيه الواسعتين عندما تنام العيون ، كل العيون ، انها اللقمة التي من اجلها قضى والده المرحوم ثلاثين عاما حارسا لهذا السوق ، لا يعرف في ليلة طعما للنوم او الاغفاء ، ان عيني والده القويتين النفاذتين هما الان مرتع لديدان صغيرة ، وصغيرة جدا ، ومن يدري لعلهما لا زالتا على حدتهما تعاندان الموت في قبرهما العتيق المعتم .

واخذ بكر يستعيد ذكرياته مع والده المرحوم ، ونظراته تخترق زجاج النافذة وقد بدأت تتجمع فوقها من جديد حبات صغيرة من الماء . انه لن ينسى كيف بات في هذا الكوخ الليالي الباردة وهو نائم في احضان والده ... إنها الايام تمضي ... لكم رغب معها آنذاك ان ينام والده ولو لحظة صغيرة ليقوم هو بدور الحراسة ... ولم لا أليس هو بكر الشقي كما يسميه اهل الحي ... ولكن والده كان يقابل عروضه الملحة دوما بالابتسام مربتا على كتفه قائلا



بقلم محمد جهاد الكاتب

له : غدا تكبر وتعرف طعم الحراسة ... »

انه الان قد كبر وحل محل والده فورث كوخه الخشبي المتطاول ... ان شاربيه الاسودين الغليظين يثبتان انه قد كبر واصبح شابا مديد القامة ... ولكن الناس تأبى الا ان تناديه بـ (بكر الشقي) .. وهذا ما يبني في قلبه حقدا طيبا يزول بعد دقائق على انقاض قبلات خشنة . ان بكر مصمم مع نفسه ان يثبت للناس جميعهم انه ابن ابيه بحق ... وان عيني والده انما انتقلتا اليه بعد وفاته .. بل لقد فكر بكر بجد ان يجعل من اذنيه الطويلتين مضربا للامثال وحديثا للسوق ... ولكن كيف يثبت لهم هذا ؟ ... ان احدا ما لا يقترب من السوق ليلا طالما ابو بكر الكردي يقوم بحراسته ... وفجأة داهم عقل بكر خاطر مزعج ، انه حارس جديد ولا بد ان لصا حاذقا سيحاول اقتحام السوق ليسرق شيئا ما من محالها الدسمة ، متيقنا من نجاحه لان ابا بكر قد مات وشاع خبر موته بين الناس .

اخذت عينا بكر تلمعان تحت الضوء الصغير وهما تحدقان في النافذة بعنف ... ان الاوراق البيضاء المتطايرة يحسبها الان جنا تتغامز بعينيها مشيرة نحوه بسخرية ... ولم تكون جنا ؟ الا يعقل ان تكون هذه الاوراق « بهية » ابنة عمه وهي تتجه نحو كوخه بملاءتها السوداء تتأبط صرة التطريز البيضاء .. انه يحبها .. وهي كذلك ... ولكن من اين له بالمهر ... وطاف به الخيال فحمله الى بيته حيث امه لا زالت تتقلب بصعوبة والم على فراش يضم خمسة من الاطفال الصغار هم مجموع اخوته ... لكم تمنى ان يشتري لهم فراشا خاصا بهم ، يتمددون عليه براحة وفرح ... وتستطيع امه بعدها ان تتمدد على ظهرها دون ان تجمع نفسها في كومة تتنفس باختناق .. ولكم يشكر ربه الان لان والده لم تلهمه الحياة ان يطلب من الله ولدا سابعا ، وعندها تكون الطامة الكبرى لان اية ولادة تحدث في البيت ، سيكون معناها فما جديدا ومرضا اخر ... ومكانا صغيرا في الوكر العتيق .

انه الان يشعر وهو في كوخه هذا بشيء من السعادة ، على الاقل ، فان سقفا واحدا يظلل حياة انسان واحد .. حتى ولو كان هذا السقف صغيرا وسريع الانهيار ... وانفرجت شفتا بكر عن بسمة عريضة ثم ضحك دون ضجة ... ولم يلبث بعدها ان سكتت ودمعتان صغيرتان تنحدران فوق خده ... ان والده أمضى ثلاثين عاما في الكوخ الخشبي ... ثم رحل الى



قبر ضيق ... وكان بكر احس وهو في كوخه انه في قبر حقيقي، جدرانه من الخشب ... انه سيدفن به نفسه الليل بطوله بل العمر بسنينه المحدودة ...

ضربت ورقة متطايرة زجاج النافذة مداعبة ، فهب بكر واقفا واصطدم رأسه بشربة ماءمعلقة قرب الباب.. ولم يابه لهذا بل تلمس مسدسه الطويل مطمئنا ، ثم فتح باب الكوخ وهو يلف نفسه بمعطف عسكري سميك وخرج وبيده ضوء يدوي صغير .. انه شجاع ولا يعرف كيف يكون الخوف .. هي لقمة عيش يجب ان يحفظ موردها ، والا فانه سيكون ابله ، وسيعد مشتركا في اية سرقة قد تحدث في هذا السوق .

اخذ بكر يتخطى كوخه بحذائه الثرثار وضوء في يده يرمي بنوره العصبي على اقفال المتاجر والمحال.. ان وراء هذه الاقفال الالوف من الليرات ... الثروة والغنى .. ينام اصحابها مطمئني الاعين ، وهي اموالهم ، ويظل ، وهو الذي لا يملك منها الا حق النظر ، ساهرا يحرس سعادة غيره بعينيه الواسعتين واذنيه اليقظتين .. القى بكر ضوءه على صندوق خشبي كبير فارغ فاذا بقطة سوداء تنشب أمام عينيه بمواء حاد لتهرب من النور وتختفي في احشاء الظلام بلمح بصر.. انها صديقة والده وكثيرا ما كانت تقضي الليل بطوله مع والده ، انه ولا شك يعذرها الان لانها لا تعرفه ولا بد لها من زمن تانس بعده به كصديق وحدة وسمير سكون وظلام ... ورغم ان معطفه كان سميكا الا انه شعر بالبرودة تلامس اعصابه برقة وكان الهواء يداعبه ... وخاول ان يخرج علبة تبغه ليلف لنفسه لفافة تدفيء صدره البارد ، وكم تمنى لحظتها ان يشرب كوبا من الشاي الساخن مع لفافته الرفيعة التي اخذت تشع ببصيص متردد حائر .

كان بكر يسحب دخان لفافته بشراهة عندما تراءى له شبح بعيد يتنقل بحذر وسط الظلام ، وبرزت عيناه حتى كادتا تخرجان من محجريهما ... واسرع باطفاء لفافته باصبعه ليعيد تدخينها بعد حين ، وهو يحاول ان يختفي وراء الصندوق الخشبي الكبير ... كان قلبه ينبض بفرحة لا خوف فيها ولا وجل .. سيثبت الان للناس انه لا يقل عن والده في شيء ..

الضوء في يده اليسرى صامت ، واليمنى في جيبه تتلاعب بفتات كعكة يابسة اكلها منذ أيام ... نظر بكر بعيدا حيث يربض كوخه عند منعطف السوق ، وهز براسه راضيا مطمئنا الى ان اللص لا بد واقع بين يديه بعد لحظات .

اقترب الشبح ببطء مجانبا ابواب المحال بحذر ، ثم توقف فجاة امام محل اطعمة فخم . ولم يلبث بعدها ان اخرج حلقة مفاتيح احدثت صوتا ناعما وانحنى على القفل الاول يريد فتحه ... وطال انتظار بكر يراقب غنيمته بتلذذ ... وافلح الشبح في فتح القفل الاول وصعب عليه الثاني ، وعبثا حاول فتحه ... وارتمى في هذه اللحظة ضوء بكر على باب الدكان بعنف فهب الشبح يطلب الفرار ... ولكن قبضة بكر كانت اسرع من ساقيه الرفيعتين... وحاول اللص الخلاص من قبضة الحارس فعاجله بلطمة على وجهه بات بعدها في استسلام تام وعجب شديد، لان الحارس لم يرسل بصفارته اية اشارة كما توقع لحظتها.

ساق بكر غنيمته الى كوخه الصغير... وهناك تحت الضوء القوي تفرس بكر في لصه بنهم « يا له من صغير هذا اللص » قال له بخشونة ولا زالت يده تشد على صدر اللص بقوة « حرامي ... » لم يابه اللص لكلمته ، بل راح يحملق في الكانون وقد اخذت جمراته الحمراء بالاغفاء كاسية نفسها برماد ابيض رقيق .. وكرر بكر كلمته « حرامي » وهو لا يدري تماما لم ادخل اللص الى كوخه، وضاق بكر بصمت غنيمته فحمل يده بتثاقل وصفع بها خده قائلا :

ـ الا تتكلم ... حرامي ... اعمل ... لا تسرق ، الا تسمع ؟

القى بكلماته المتقطعة هذه واحس بعدها بالتأنيب ينهش قلبه ... وتلاقت عينا اللص الممتلئتان بالدموع بوجه بكر المقطب وهو يتمتم بكلمات مبهمة ... ودون ان يشعر بكر تراخت يده عن صدر اللص وارتفعت الى جبينه الضيق تحكه بتؤدة ، وقد تذكر ان اللص انما كان يقف امام محل مليء بالاطعمة الفاخرة، ولانت حدة غضبه وهو يقول له وكانه يخاطب ابنا صغيرا :

ـ اسمع يا بني ... لماذا لا تعمل ... السرقة حرام ... لو فكرت انا في السرقة لامكنني ان اكون اليوم من الاثرياء ... الا ترى معي ذلك وكل هذه المحال قابعة امام كوخي بذل ! ولكن السرقة حرام .

وغاظ بكر ان لصه لم يكن ليفهم او يعي ما يحدثه به، لان وجهه الصغير والدموع فوق خده كانت تنطق بهذا ... تابع بكر حديثه صارخا :

ـ الا تسمعني ... الا تسمع ما اقول ... لا تكن سارقا .. لا تكن.. سوف اجعل منك عبرة لهذا السوق.. لن يتخطاه بعد هذا اليوم لص ... اي لص كان .

لم تكن دموع اللص الصغير الا وخزات في قلب بكر الحارس ذي المسدس الضخم والكوخ الخشبي والضوء اليدوي ...

رفع اللص يديه بارتجاف واشار الى فمه المفتوح ... ثم الى معدته وهو يضغط عليها ... وتاتا بصوت لا يفهم ... وعندها صمت بكر واطرق براسه مفكرا وهو يسد بقامته باب الكوخ ... ان لصه اخرس ... ومن يدري فقد تكون احدى حيل اللصوص والاعيبهم لاستدرار عطف الحراس عليهم . الا ان بكر اقتنع مع هذا بان لصه اخرس . ولا ينفي هذا الاعتقاد تهمة السرقة عن غنيمته التي

الشهيد

هتفوا بـه : يا ابن الكفاح قم نلتمس بـرء الجراح
ونثيرها للحبق ، ملحمة ، تزغـرد في البطـاح
.. بـالابيض الهندي ، يخترق الصدور ، وبالرماح
أيـدوس منزرك الدخيل ، وانـت تعبث بـالوشـاح ؟ !
هتفوا بـه : والليـل يـرد للورى ، خـبر الصباح
فافاق مفجوع النهى يمشي الـى الحرم المباح
بخطى ، يواكبها الرجـاء ، يحثهـا امـل الطماح
وفم يـزف الـى الحياة ، تحية الحق الـصراح
وفؤاده الخفاق يعصف فـي الغدو وفي الـرواح
... واتـى وظل الشوق ، يدفعه الى الساح الفساح
يلقى الطغاة براعف معطـاء ليس من الشحـاح
... ويهزه هـز الغضنفر ، ساعديه لـدى الجماح
فيغيب يمحي الظالمين ، ومـا سـواه اليوم ماحي
حتى اذا دلـف المساء ، وراح يقتحم النواحي
ألفاه مقصوص الجناح ، ومـا الحياة بـلا جناح !
خلقت لمرآه السماء ، وجلجلت هـوج الريـاح
وبكته بالدمع الهتون ، مدامـع الحمـر الاقاحي
... يا شعلة الامل المزمل بالسخي من الجراح ..
مـا انت الا زهرة ، عـذراء مـن قلب الصباح ..

محمد شمس الدين

عاركت الاقفال زمنا غير يسير ... لعل له اخوة ستة او سبعة هم الان ينتظرون عودته بفارغ الصبر وقلوبهم واجمة لا تجد الى النوم سبيلا ...

تذكر بكر هذا واخوته الخمسة يتمثلون امامه وهم يغطون في نوم عميق لان لديهم على الاقل كسرة خبز يبلون بها لعابهم قبل ان يتكوموا حول امهم يطلبون النوم تحت دثار ممزق .

طال وقوف بكر واللص بين يديه يرتجف باكيا بكاء اطفال رضع ... وحار بكر في رأيه ... ان اللص الغبي سيكون عبرة للاشقياء من اللصوص لو سلمه حالا الى الدورية بعد ان يطلبها بصفارته النحاسية الصفراء ، الا ان قلبه يحثه على اطلاق العصفور الاخرس من قفصه ليطير كيف يشاء ... صحيح ان السرقة جرم بشع الا ان بكر لم يكن ليعتقد به قانونا يقطع الايدي الطويلة دونما تمييز . اذ لا بد ان تكون بعضها بريئة لا تبغي الا الخير لنفسها ولمن وراءها من الاجساد العارية التي لا تستطيع اسكات امعائها دوما بحصوات ناعمة تبتلعها على عجل .

وبنظرة عطف القاها بكر على لصه فتح منديلا احمر فيه رغيفان وقطعة جبن صغيرة صفراء .. ومد الرغيف وقطعة الجبن الى اللص الصغير قائلا بابتسام :

ـ كل ... كل ان رغيفا واحدا يكفيني .

واختطفت يد اللص الرغيف اختطافا واخذت اسنانه بعدها تجد في عجنه.

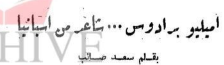
جلس بكر على كرسيه . يحرك بملقط صغير بقايا جمرات صغيرة ذائبة وعيناه تتنقل فوق البسمة اللص المتداعية ، وفي لمحة بصر اندفع اللص من باب الكوخ هاربا وبقايا رغيف بين اصابعه .. لم يقم بكر باية حركة سوى انه نهض بهدوء وفي صدره انشراح ما يطفى حتى على وجهه واقفل الكوخ وهو يلاحق بنظراته الحادة شبح هذا الليل .

نظر بكر الى الرغيف ثم اعاد لفه بالمنديل وهو يتمتم باغنية شعبية .. ورغم قناعة بكر بان لصه لا بد ان يعود الى السرقة بعد ان توخزه معدته بالجوع القاتل .. الا انه فضل ، وهو قابع في كوخه الصغير يحدق من نافذته ، ان يعيد في ذاكرته مرات عديدة قول والده له يوم كان صغيرا .. « غدا تكبر وتعرف طعم الحراسة ».

حلب — محمد جهاد الكاتب



سعد صائب



بقلم سعد صائب

* * *

اجمع النقاد والشعراء والكتاب في العالم ، على الاعجاب بالشاعر الاسباني الشهيد « فيدريكو غارسيا لوركا » – ١٨٩٩–١٩٣٦ ، والاشادة بنبوغه ، وتوثب خياله ، وبساطة تعبيره ، وصدق احاسيسه . فثمة فريق اعجبته شعبية الشاعر ، ووطنيته ، وطابعه المحلي ، وهو ما يبده به قارىء شعره فيحس لتوه بنكهة خاصة مستملحة ، فلما يقع عليها في شعر سواه من شعراء العالم .

وثمة فريق ادهشته اصالة عمله الفني ذاته ، الذي لم يتجل فحسب في « تمكنه من تحقيق المعجزة في تحديد الشعر الاسباني ، وقد حقق ذلك بتنكبه عن سلوك الدرب السهلة التي كان رفاقه من الشباب ينساقون اليها ، فتقودهم الى المذاهب الشعرية التي لم تكن الا امتدادا واصداء للمذاهب الشعرية السائدة في البلدان المجاورة » بل في تلك الظاهرة الجديدة التي لم يالفها بعد النقاد ولا متذوقو الادب ، اعني جرأته على مواجهة المشكلة التي يعانيها التعبير الشعري ، والقيود التي فرضت عليه ، وتوشك ان تقتل فيه الاصالة ، التي تقوم على التحرر والانطلاق المؤديان الى الخلق والابداع .. وليس من شك في ان « لوركا » لم يشأ ان يكون سلبيا حيال تلك المذاهب بل كان بفطرته يأبى التقليد والمحاكاة ، ويدعو مخلصا الى بناء مذاهب ادبية جديدة ، منبثقة من صميم الروح الإسبانية ذاتها ، مرتكزة على اسس قويمة ودعائم ثابتة من التجربة الوطنية المحلية ان جاز التعبير ، مستقاة من معطيات التراث الاسباني ، الذي لا بد للشعراء من ان يتمثلوه تمثلا حيا ، ليبدعوا منه ومن مواهبهم وثقافاتهم ، مذهبا جديدا يتلاءم والروح الاسبانية ، ويفرض بالتالي وجوده على النتاج الادبي في العالم ، شان سواه من المذاهب التي ينهج الادباء نهجها ، ويقتفون اثرها ، ويسلكون سبيلها .. لقد ابتكر « لوركا » بفضل موهبته مضمونا جديدا للشعر لا في اسبانيا وحدها بل وفي العالم كافة ، ويخيل الي انه جاء بداية طور ما برح الشعراء يحاولون تقليده فيه فتلقى غالبيتهم الاخفاق لفقرها في «الكلمة الموحية » التي رسمها « لوركا » لقارئه فاثار فيه موقفا انسانيا شبيها بموقفه ، واكاد اقول شبيها بالتجربة الحية التي عاناها . ولعل مما يسترعي النظر ان هذه الوثبة الجريئة الموفقة التي وثبها « لوركا » كان مبعثها الخصائص التي تفرد هذا الشاعر بها ، فلم يقف عند تصوير عالمه الذهني فحسب ، بل مزجه بعالمه الواقعي والحياتي كذلك ، فبدت في شعره تلك الإزدواجية (١) النادرة ، بين واقعية لا مغالاة فيها ولا عنت ولا تعمل ، تتصل ببيئته اتصالا وثيقا مباشرا ، وبين خيال بسمح مجنح يسمو به الشاعر الى عالم من المثل ، تتجلى فيه اروع جلاء وابهاء ، صور وملامح انسانية مؤثرة ، توشك ان تتعدى حدود وطنه ، حتى ليحسب قارىء شعره إن المأساة التي تعانيها اسبانيا هي ذاتها المأساة التي ترزح تحت وطأتها الغالبية العظمى من البشرية ، في جوعها وفقرها ، وفي الظلم الذي يحيق بها من كل جانب . وليس بدعا ان يحس « لوركا » بالمأساة وان يحياها فيضمنها شعره ، ولا غرابة في ان يؤمن بالحرية كهدف انساني سام يطمح الى بلوغه .. وها نحن نراه يفصح عن هذا الهدف بقوله في احدى مسرحياته : « وما الانسان دون حرية يا ساريانا، ودون هذا الضوء الثابت المتناسق الذي نشعر به في اعماقنا ؟ وكيف يسعني ان احبك اذا لم اكن حرا ؟ قولي لي ، كيف يمكنني إن اعطيك هذا القلب القوي اذا لم يكن ملكي ؟ » ولعل هذا الايمان وحده بالحرية ، كاف ليجعل منه رمزا حيا لدعاتها وقادتها ، ومثلا اعلى لشعرائها وكتابها الاحرار ، ينتزع منهم جميعا اعجابهم ومحبتهم واجلالهم ، بعد ان ادركوا عظم الكارثة لمصرعه ، وهو بعد في زهو شبابه ، وريق عمره (٢) .

والقصيدة التالية رثاء نظمه الشاعر الاسباني « اميليو برادوس » المولود عام ١٨٩٩ في مدينة « مالاقا » جعل فيه ناظمه صوت خدينه الشهيد « لوركا » وكأنه بعث لوركا ذاته الذي يهتف : « الى النور ، الى الحجرة ، الى حقل القمح » مؤكدا ان جميع الحدود قد هدمت ، وما الكون الا « حرية موجهة في لطف الريح » وان الحياة الانسانية تناسخ ارواح موجز ، تستحيل فيه الحياة ذاتها ، من كيان جسدي الى « حالة حقيقة » هذا فيما لو استطعنا إن نعبر للناس عن الوجود المتحرر عمليا ، والموجه في آن معا ، اولئك الناس الذين يمكن ان يؤلف بينهم وبين الكون وعي بانهم لا شيء ، او انهم صوت فحسب ، صوت « نهر طبيعي » . ان الماء في هذه القصيدة هو الرمز المتبدل ، اعني الرمز الفصل للحركة المجهولة المسمى ، التي يضيع الانسان فيها بعزلته، كيما يكتشف وجوده الحقيقي ... « ايتها العزلة اني لابنيك ليلة تلو ليلة » ذلك هو الهاتف المدوي الذي زأر به « اميليو برادوس » حيال بحر « مالاقا » حين اكره على مغادرتها منفيا الى المكسيك ، بعد ان عرف وهو طفل معنى اللانهاية ، اعني حقائق موضوعية (٣) .

ولقد كان « برادوس » ذا نتاج شعري خصب ، يزخر بالعاطفة الصادقة والايمان العميق بالحرية ، ومن اهم آثاره المنشورة « زمن » عام ١٩٢٥ و « اغنيات مراقب الفنار » و « اياب » عام ١٩٢٧ و « بكاء في الدماء » و « قدر وفي » عام ١٩٣٦ و « ثلاث اغنيات » عام ١٩٣٧ و « موت ضئيل » و « الحديقة المغلقة » و « نهر طبيعي » و « ختان الكرى » عام ١٩٥٧ .

---

* من كتاب « شعراء معاصرون من العالم » المعد للطبع .

(١) « لوركا شاعر اسبانيا الشهيد » تاليف الدكتور علي سعد .

(٢) قتل لوركا في الحرب الاهلية الاسبانية صباح ١٩ آب ١٩٣٦ وهو في السابعة والثلاثين من عمره . (٣) «نصف قرن من الشعر» بالفرنسية من منشورات « اليونسكو » .

في ظلال الموت مع غارسيا لوركا .

فقد

ان ايدينا لا تــدرك
إن إيدينا لا تــدرك
حيث اهابك القصي
يجسدك فـي الريـح
التي لا تعيهـا الاحـلام .

ان ايدينا لا تــدرك
النافـذة الظلمـاء
حيث تغنـى الظـلال .
ان ايدينا لا تـدرك
ولعل ذراعي تمتـدان
وكانهما الصوت العميـق .
الذي يبحث عنك فوق اديم الثرى
ويا له من تحليق في سبيل غيابك !

تمتد ذراعاي الى بعيد
فلا تلتقيـان البتـة
بالـم حدود جسـدك
الذي يخلو من شواطىء .
أن ايدينا لا تــدركك
لانك تبحث عن ذاتـك
ولان الكل يدعونك
وانت لم تعد تعي قط
اين نجمـة لحمـك
ان ايدينا لا تــدركك

ارسل الطرف الى هذه الوردة
على جنبات الوغى السود
وقد انتصبت كي تدرأ الاذى
عن ربيعها الوشيك الـزوال
ان فـرار اغنيتـك
واغنيتك على الرملـة
يهبان ذاتيهما لوريقات الوردة
واهاب الثيران

قلب الطرف فوق اديم الثرى
واستجل هذا الشاطىء الرحيب
الذي نبحث فيه وكاننا اطفال
عن صدفة اسمك .
هكذا ، كاننا اطفال
نبحث عند الشاطىء
في الدجى الكهفي ، بعد ان اضعنا ارواحنا
نبحث فيه عن ملاوة من صمت .

قلب الطرف فوق اديم الثرى
ان ايدينا لا تدركـك
بيد انها تدرك زبد حتفك الوئيد
الذي يخلفه وراءه مد طويل
ان ايدينا لا تــدركك ..

قلب الطرف فوق اديم الثرى
عبثا تتقراك يداي بلمـس
وتخطىء عيناي في منتهى ألاقاصي
ركوب متـن البحـر
وتوشكان ان تفتقدا رجاءهما ..

بحث

انهم ليرددون حتفك
يرددون اسم غيابـك
ويكادون لا يكتمون صيحاتهم
من اجل التعرف عليـك
لعل الرياح تجري بما تشتهي اهواء الناس
جاهلا منها ، انك قد تقيم فيهم .
ان بين طيات اهابه العنيف الذي يحضنه الوغى
او في قلب الدمعة الصامت
يبني الكلام زهرة امجادك
ويكاد لا يفقه لون يديك ..

اني لاعلم ان في جانب الماء ثمة جاذبية بوصلتك
توجه فؤادك صوب ألافق العذب
حيث الخبز ، والسكر ، والهواء ، والفحم
تصبح من كدح الانسان فجرا رائعا .

القلب طرفي فوق اديم الثرى
ولم يك موجع القلب الا من هنيهة عبورك .
ان الانهار الممزقة تدمى فوق صدرك
حيث تسمو الشجرة بعزلتها الشهيدة .
ترى ، أي المشاهد تضطرم بفضل قلبك ؟
لقد ذقت طعم نسغك العجيب
بيد ان الالم وحده ينساب اليوم فوق الثرى
ولكني عاجز عن اللحاق بك عبر شكله ..

حقا ، انك هارب حين يدعوك الزمن
وحين يبحث الصوت عنك حثيثا في الدجى
لان الردى في غيابك قد اتشح بدمك
بيد اني اهدس ، شاعرا انك تحت صدغي من جديد .

ان اولئك الذين يجهلونك ، يقودونني اليك
اولئك الذين لم يفقهوا ان كان دمك يزأر
اولئك الذين تتصل اسباب معرفتهم بك ، يروون لي حتفك .
فاهزج .. أهزج يا اخي للسماء ، ان كنت فضاء ..

لقاء

لكي الج سنيتي ، ارخي جفني
لان العالم يرسم في عيني حدوده
واراني اغمضهما عازفا عن الزمن
متخذا سمتي عائدا الى الحياة التي افتقدها .

من تراه ينكر ان دمي لا ينبجس من حلمي
او ان صحوي المظلم لا ينبثق منه لحمه المزين بالنور
ذلك لان الحياة ذاتها تقفو خطوي حتى غورها
وهناك ، تحت عيني المغمضتين
تناضل مع لانهايتها
كسماء رحيبة ميتة ، اغرق فيها ناظري
ان ليل العالم يمتد الى الخارج

الشعرة البيضاء

يا شعرة بيضاء تنذرني
بالشيب ليت الشيب لم يكن
هذا بياض كالسواد بدا
في العين بئس طلائع الكفن !
تبا لها دنيا مخاتلة
فطرت على النكبات والمحن
لم ينج من اهوالها احد
حتى صغار الطير في الوكن ! ..
ما اضحكت ثغرا لنا وفما
الا اسالت أدمع الحزن
كم صورة من امس لي ظهرت
في خاطري ماذا تذكرني ؟
غير الذي قد ضاع من عمري
أواه ! هم العيش شيبني ! !

زمني مضى كالحلم منفلتا
لم يبق لي شيء من الزمن ..
الا الاسى والحزن مع ذكر
غابت ... وكاد الذكر يقتلني !
اين الحبيب وكنت واهبه
قلبي .. وكم بالوصل عللني ...
أتراه يحفظ عهد صبوتنا
او بعد هذا الشيب .. يذكرني !؟
هذا الرماد بلمتي يدا
من بعد نار الحب ... واشجني ! !

زحلة — رياض معلوف

في حين يعبر دمي في صمت
منقبا لذاكرتي عن حقول قدره .

حسبي ان الج منيتي ، كي اولي هاربا
وان ارخي جفني كي الج جسدي .
حسبي ان اغمض عيني فيمثل امامي اديم الثرى
وانا ذاتي مسمر تحت جنح الكون القاتم
يوقد دمي ها هنا وجودي النقي
حيث يشق السر الخفي درب ابديتي الحنون .

ان الوغى يزعزع بعيدا الدور والشجر
والنور الذي لا يخبو يثير في اسماء .
حسبي ان ارخي جفني كي الج منيتي
فاجهز على جسدي ، دون ان افجر ذاكرتي .

ايتها العزلة الهادئة
اني لارخي جفني كي اولد يقظان
عبر الدم ، دون ان ارهق الولادة .

اغمضوا ، اغمضوا عيني !
اني لابتغي الساعة
ان اكون في لحمي المفني تحت اطباق ثرى مظلم
واتوق الى ان اظل في المركز ، ثمرة العالم الوحيدة
ابحر عبر السموات طي العلاء الاجوف .
اغمضوا ، اغمضوا عيني على حياة البؤس
وليقدم لحمي قربانا للموت اللانهائي .

دوام

لقد اضاع النور ، معالمك الزائلة
ولن يحلي دمك مداعباتك السماء
ولن ينفخ صوتك في الاصداء التي ترقب ايابك
بعد ان ذوت في نسيانك ، فوق الحجرة الصماء .

ان النجمة العالية تستكمل رسالتها
فتضيء ليلة تلو ليلة ، دون تمسس ظلك
وتعيد دوما فزعها اليومي :
من انك غائب
أترى يقدر الدم على الانين في جمع راحتي ؟
لن يخرك قط ثرى جسدي
لان خطاك رسمت فيه نبضاتك العميقة
حسبي ان اغمض عيني ، لتنتصب امامي
ولئن غيبتك الريح ، فان دمي يعثر عليك
فلاغمض عيني ، ان انت مت حقا
اذ ليس في مقدوري تخيلك الا في منيتي .
ها نحن نمضي معا صوب الداخل متلازمين
اما اولئك الذين لم يعرفوك ،
فانهم يهزجون باسمك في الخارج .

ان الانسان ليضمحل في رماد العالم
اما اسمك فيظل كاملا في حلم الريح ..

دمشق — سعد صائب


انور الجندي

الحزن والحرمان طابع الادب النسوي

بقلم انور الجندي

* * *

في مراجعة شاملة للادب النسوي المعاصر منذ فجره حتى اوائل الحرب العالمية الثانية يتبدى طابع حزين منقبض . يغمر ادب المراة ويكاد يصبغه بصورة مظلمة قاتمة . وليس هذا غريبا ولا مدهشا عند النظرة الاولى ، بل هو متوقع اذا عرضنا الامر على الفكر ودرسنا ظروف مجتمعنا في ظل حركة نهضة المراة وتطورها مع نهضة الفكر والثقافة في الشرق العربي .

ذلك ان المراة التي كانت في خلال القرن التاسع عشر تعيش في الحريم، حياة ترسمها صور الغانيات والجواري، والرجل لا يراها الا متعة له ؛ يبعدها عن ضياء العلم والحرية والسفور ، ويحيطها بسياج كثيف من الجهل والجمود ، فلا يظنها اهلا لاي حق من حقوق الانسان ثم اذا بها تواجه دعوة لتحريرها . علت بها الاصوات فوق المنابر وفي صفحات الكتب في الشام ومصر ، واذا بها تبدأ طريقها الى المدرسة ، فاذا مضت في خطواتها تواجه الحياة لا تلبث ان تصطدم بكثير من المتاعب والآلام والاحداث والازمات . واذا بها تجد « قلمها » لتصور حياتها وآلامها .

وهكذا كانت الرائدات من كاتباتنا مثلا من امثلة الازمة النفسية التي واجهت بها المراة الاضواء ، وصدمتها لاول مرة وهي تخرج من الظلام الطويل وهكذا ينطبع (الادب النسوي العربي المعاصر) بطابع الحزن والحرمان . يتمثل هذا في ادب وحياة ثلاثة من اعلام الادب النسوي : عائشة التيمورية وملك حفني ناصف ومي زيادة .

فنحن نجد في حياة كل من الكاتبات الثلاث ازمة واضحة تكاد تستغرق حياة كل منهن . بعد ان امتدت وتعمقت وصبغت ادبهن بطابع الالم وظلام التشاؤم والحزن.

ازمة عائشة التيمورية

اما عائشة التيمورية الشاعرة النابغة التي هي في نظر الكثير من الباحثين والنقاد ابرز الشاعرات العربيات بعد الخنساء . نشأت في بيئة الفكر ودنيا الادب . تريدها امها ربة بيت وسيدة قصر وهي تريد حرفة الادب . وكان والدها يؤيدها في اتجاهها ويقول « ان كان لي من عصمت كاتبة وشاعرة فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي » .

غير ان الازمة النفسية ما لبثت ان سيطرت على حياة الشاعرة الصداحة ، عندما تعرضت ابنتها « توحيدة » ـ الوحيدة الجميلة التي بلغت الثامنة عشرة ، وتأهلت للزواج ـ للموت بعد مرض خطير اذهل لب امها ، كان موتها حدثا ضخما في حياة الشاعرة هزها هزا ، وحولها سبع سنوات كاملة ، لم تعرف فيها غير البكاء والنواح ، حتى ضعف بصرها وشاب شعرها وشيخت قبل ان تبلغ الاربعين .

تقول : « كانت الثمرة الاولى من ثمرات فؤادي وهي « توحيدة » نفحة نفسي . وروح انسي . فقد بلغت التاسعة من عمرها ، فكنت اتمتع برؤيتها . تقضي يومها من الصباح الى الظهر بين المحابر والاقلام . وتشتغل بقية يومها الى المساء بابرتها فتنسج بها بدائع الصنائع فادعو لها بالتوفيق شاعرة بحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنها من النفرة من مثل هذا العمل » .

هكذا كانت توحيدة عقدة حياتها . حبيبة اليها . كانت شاعرة مثلها . تعلمت العروض . في اول مرضها كانت تداري امها حتى لا تكشف علتها . فتأكل معها ثم تذهب لتخرج ما اكلت . وتتركها لتنام فلا يغمض لهـا جفن . وكتبت شعرا نعتت فيه نفسها . فلما احست الموت كانت تعزي امها .

وكان الحادث بعيد الاثر في نفس عائشة الى حد لا يكاد يتصور ، فقد قيل انها اقامتها بعد موتها في جلوة الفرح « الكوشه » واحتفلت بزفافها وهي مقعدة اياها ، مسندة لها ، ليلة طويلة قضتها في الرقص والفرح ، كأنما ارادت ان تعاند القدر وتقيم الحفل الذي حرمها منه الموت ، ثم انتهت من حفلها الى بكاء وصراخ .

وقد امتدت ازمتها فاحرقت في ظل الفاجعة اشعارها كلها الا القليل . تقول : « اما اشعاري بالفارسية فانها لما

كانت في محفظة نقيدتي فقد احرقتها بمحفظتها كما احترق كبدي . » ثم هجرت الشعر والحياة كلها وتقول: « اصبح جسمي الضعيف كانه فاقد الحياه لكثرة اتعابي واوصابي . »

وكانت عائشة قد قاست لوعة الحزن قبل ذلك بوفاة والدها ثم زوجها ثم وفاة توحيدة فبلغت غاية الاسى واللوعة ، وظلت حزينة حتى بعد ان رزقت بابنها محمود . وصورت حياتها بقولها :

انى الفت الحزن حتى انني　　لو غاب عني ساءني التاخير

وقد خلدت بشعرها ابنتها توحيدة ورسمت صورة الامومة الملهوفة واحاسيس الحنان والحرمان وعجز الطب وياس الطبيب . والاسى والهزيمة في الدنيا ورجاء في اللقيا في حياة اخرى :

ان سال من غرب العيون بحور　　فالدهر باغ والزمان غدور
فلكل عين حق مدرار الدما　　ولكل قلب لوعة وثبور

ازمة ملك حفني ناصف

اما ملك حفني ناصف فقد واجهت ازمة من نوع اخر ، انها كانت من اوائل النابغات الناهضات بعبء الدعوة الى حقوق المراة . وكان المؤيد مجالها في اول الامر ثم نشرت في الجريدة مقالاتها التي جمعت من بعد تحت اسم « النسائيات » عملت معلمة وكانت تكتب وتخطب ، وصفها احمد زكي (باشا) شيخ العروبة بانها « اعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العصائب مفاضلة ارباب العمائم في ميداني الكتابة والخطابة » .

وقد وضعت دستورا للنهوض بالمراة اهتدت به هدى شعراوي بعد ذلك بعشرين عاما .

غير انها لم تلبث ان زفت الى زوج من مشايخ اعراب البادية وذهبت لتعيش على حافة الصحراء ، بعد ان الفت حياة المدينة في القاهرة .

هنالك بدات متاعبها واخذت طابعا جديدا ، كانت الحياة تعطي صورة القصور المنيفة والحياة البدوية والتقاليد القديمة . ولم تلبث ان واجهت قضية هامة هناك ، ذلك انها لم تنجب بعد مرور السنوات . وكان هذا حدثا . فالمراة الولود هي طلبة التقاليد هناك . اما المراة التي لا تلد فهي موضع الهمس والاشارة والسخرية ، انها عندهم العاقر الجانحة عن اهواء البادية ، وبدا لهذا الامر اثره في نفسها ، كان رمزا على الكبرياء المجروح .

ودخلت المراة المثقفة التي تعيش بفكرها لوطنها وجنسها في معركة جديدة ، كانت هي نفسها موضع البحث . زوجة شيخ القبيلة لا تلد . وهزتها المشكلة واثرت في نفسها اسوا اثر ، المراة المثقفة توضع موضع الامتحان في ظل الجواري ومفاهيم الصحراء ، وحاولت ان تصنع شيئا من اجل تحقيق هذا الامل الذي يعطي شخصيتها كمالها .

وانتهز الزوج هذه الفرصة فاعاد زوجته الاولى التي كان قد طلقها وله منها ابنة ، فزاد ذلك من عنف الازمة ، واثار في اعماقها مزيدا من الالم والضيق .

وعاشت سبع سنوات في معركة نفسية قاسية ، حاولت ان تصورها في كتاباتها ، غير ان الاثر العصبي كان قد سيطر على كيانها كله . وبدت المعركة من نوع اقل كثيرا مما يتفق مع شخصيتها ومع دعوة تحرير المراة وتطورها .

وحاولت ان تغرق نفسها في مزيد من العمل في الحياة العامة ، كانت تحمل حملات شعواء على الطلاق وعلى الضرار . وبدت ترسم للرجل صورة لم تجردها من مشكلتها الخاصة .

وكانت تهدف من وراء هذه الاعمال ان تحدث الدوي الذي يصم اذنيها عن سماع صوت الالام المنبعثة من اعماقها .

وغلف كتاباتها لون حزين قاتم ، وبدت صيحاتها غاية في العنف والشدة .

كان الانتقال من حياة الفتها في المدينة الى حياة البادية حدثا في نفسها ولكن ازمة الانجاب . وقصة المراة العاقر . ومشكلة الضرة ، كل ذلك لم تحتمله هذه النفس الرقيقة المشرقة فكانت الصدمة عنيفة غاية العنف .

غير ان الامر بلغ غايته عندما رات ان تعمل اي شيء في سبيل ان تلد . فاتجهت الى طبيب تركي مشهور محاولة علاج عقمها عند ذلك تكشف لها انها ليست عاقرا . وانما هو زوجها الذي اصيب بعد زواجه الاول وانجابه ابنته الاولى في رحلاته واسفاره بامراض وعلل اضطر معها الى اجراء عملية جراحية عاد بعدها عقيما ..

وكان هذا الخبر اقسى على نفسها من كل ما ذاقته من الام خلال سبع سنوات ، ولم تعش بعد ذلك الا قليلا فقد ضاعت كل الامال . ومضت تذبل وتذوي حتى ماتت في سن الثالثة والثلاثين في ريعان الشباب . وقد شاهدتها الكاتبة مي زيادة في ابان ازمتها ووصفتها بقولها :

« امراة مربعة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة . ممتلئة الجسم ، طلقة المحيا . مستديرة الوجه . ذات صوت اغن الرنين تملؤه لهجة الواثق . يلمح الناظر في عينيها السوداوين القاتمتين الواسعتين بريق الذكاء وايات التفكير العميق والفطنة» ثم تقول«على محياها سحابة من الهموم» .

وقد حاولت ان تكشف عن ذات نفسها في رسائلها الى « مي » تقول : « الامي ابتها السيدة شديدة ولكني انقلها بتؤدة كاني اجر احمال الحديد فهل تدرين يا سيدتي ما هو لي .. ليس لي بحمد الله ميت قريب ابكيه . ولا عزيز غائب ارتجيه . ولا انا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا وبستولي عليهم غرورها ..

ولكن لي قلبا يكاد يذوب عطفا واشفاقا على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها . هذه علة شقائي ومبعث الامي ، ان قلبي يتصدع من احوال هذا المجتمع الفاسد . »

وتقول في رسالة اخرى الى « مي » :

« لماذا يا مي تدعين علي بالعذاب المعنوي . انما العذاب

البدني اخف منه وطأة واعفى اثرا . على انني جربت كليهما وذقت الامرين منهما معا .

تقربني انه النار التي تحيي، نعم يا مي، انه احيارحي حتى احرقتها لانه كان كمصباح سيال كهربائي شديد . »

وتكشف عن طابع الحزن في حياتها وادبها فتقول :

« اني اول ما حفظت حفظت المراثي . واولها رثاء الاندلس . وكنت في حداثتي اقرأ كثيرا . ديوان المتنبي . واعجب بروحه العالية ونفسه الكبيرة . واظنه هو الذي دعاني الى ذلك وسمم ارائي رحمه الله » .

وقد انطبعت اثار الازمة التي عاشتها في كتاباتها في هذه الفترة ، كانما كانت تود لو ان تبلغ صيحتها الى كل القلوب التي لا تعرف الرحمة . وهي تصور « الضرة » فتقول :

« المرأة اذا ابتليت بالضرة انطفأ سراج بهجتها ، وذوى غصن قدها . يا لقساوة الرجال ، انه وهو يتزوج عليها يكلم قلبها الكسير ، فضلا عن أنه اقدم على امر لا يضمنه . أفلا يجوز ان تكون امرأته الجديدة عاقرا فلا تلد . »

وتصور الطلاق : وتقارن بينه وبين الضرار : فتقول « الطلاق : انه اسم فظيع تكاد اناملي تقف بالقلم عند كتابته فهو عدو النساء الالد ، وشيطانهن الفرد . انه لاسم فظيع ممتليء وحشة وانانية .

ان الطلاق اسهل وقعا . واخف المأ من الضرار . فالاول شقاء وحرية والثاني شقاء وتقييد . الا ان حزينا حرا خير من حزين اسير . »

وتواجه حياة المرأة من غير عاطفة فتقول : « ماذا تفيد مفاتيح الخزائن والحكم على السفن والعسل . وأين هذه من مفاتيح القلوب » غير انها تواجه الرجل بقوة وقسوة في رسائلها الى مي فتقول :

« عجيب امر هذا المخلوق الغريب الاطوار الذي يسمى الرجل . اني اعتقد انه كريم شجاع . وله قلب حساس . ولكني اظنه وبعض الظن اثم : انانيا قبل كل شيء . ورأيي ان انانيته وحدها هي اصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعبدها لا لانه يبغضها او يتمنى لها السوء ولكن ليلهو بها وهو في ذلك واسع الحيلة قوي الحجة فيقنعها فتصدقه وهو كذوب المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت . اما الرجل فهو كالنحلة ينتقل من زهرة لزهرة متروضا وقد يطيل المكث على زهرة ناضرة . وانماليمتص منها نضارتها وماء حياتها .. لقد ظلمنا الرجل حقوقنا لا لانه كان ينوي ظلمنا وانما هو اخطأ كثيرا في حسبانه ان ما يزيد في قوتنا يضعف من قوته هو .. »

ازمة مي زيادة

اما الكاتبة مي زيادة فان ازمتها اقسى من هذه الازمات جميعها ، انها « ازمة العصر » وازمة الجنس في تطوره ، ازمة الصراع بين الشاعر الكامنة في نفس فتاة مثقفة متحررة تتحدث الى اعلام الفكر في صالون الثلاثاء وبين واقع الحياة في تقاليدها ومطامعها وفوارق الاديان والعواطف والسن . لقد اعطت « مي » لنفسها الحرية الكاملة في ان تكتب وتخطب وتتحدث وتسافر الى اوربا وتجري مع تيار الحضارة الحديثة فكانت موضع حب كثير من اعلام الفكر ، فهم من نظم القصائد ومن كتب الفصول والرسائل . وكانت هي ترنو الى انسان غريب ، ربما كان وراء البحر ، تحاول ان تصل الى قلبه وهو لاه غافل في مرسمه الذي يستقبل الكثيرات .

ثم لا يلبث الزمن ان يطوي صوره ليضع مكانها صورة اخرى فيموت هذا الانسان الغائب ، ثم تموت الام . ثم تبدو الوحدة الشاحبة الحزينة ، ثم تجري عبارات من هنا او هناك حول كلمات قيلت في ايطاليا ، فتضطرب الاعصاب ويبدو شبح مرض خلف الاحزان والمخاوف . ثم تأتي الازمة الكبرى حين ينقل الاهل ابنتهم الى مستشفى العصفورية في لبنان فتمضي هناك سنوات قاسية ..

في خلال ذلك كانت مي تكتب ، وتملأ الدنيا بكتاباتها ؛ ولكنها جميعها يطبعها طابع واحد ، هو طابع الحزن والالم والتشاؤم ، كانت الصور كلها تعيش في الظل لا في الضوء. كان كل ما تكتب يرسم صورة النفس الحزينة المتمردة، التي تدفعها عاطفة قوية فياضة . ثم تردها طبيعة جبلت على الحرص واقامة الحواجز .. والحق ان واحدا من هؤلاء الذين استغرقتهم عاطفتهم حب « مي » فيما يبدو لم يفاتحها في الزواج .

لقد كانت في ادبها تلميذة لجبران والريحاني ، هذا الاسلوب المجنح العاطفي ، وليد قراءات التوراة ومزامير داود .

وكانت مي تحاول ان تصور مشاعرها في كتاب لها لواحد من هؤلاء : « سأدعوك ابي وامي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر . وسأدعوك قومي وعشيرتي . انا التي اعلم ان هؤلاء ليسوا دوما بالمحبين . وسأدعوك اخي وصديقي . انا التي لا اخ لها ولا صديق . وسأطلعك على ضعفي واحتياجي الى المعونة . انا التي تتخيل فيك قوة الابطال ومناعة الصناديد .

سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لاسمع منك حكاية همومك واطماعك وامالك . حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد . وسأتسمع الى جميع الاصوات علي اعثر فيها على لهجة صوتك . واشرح جميع الافكار وامتدح المصائب من الاراء ليتعاظم تقديري لارائك وافكارك . وسأبتسم في المرآة ابتسامتك في حضورك . سأتحول عن نفسي لافكر فيك . وفي غيابك سأتحول عن الاخرين اليك لافكر فيك. »

هكذا كانت تطوي « مي » مشاعرها على عاطفة ضخمة عميقة ؛ وهي في كل ما تكتبه تعطي صورة الانثى المشوقة المحرومة الطامعة المتطلعة الى الغيب ، كانت الكتابة بالنسبة لها انفضاء وتنفيسا وهي التي اوحت الى اسماعيل صبري شعره :

روحي على دور بعض الحي هائمة   كظامىء الطير تواقا الى الماء

ان لم امتع بمي ناظري غدا   انكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

ولا يستبعد ان يكون مرضها العصبي وما اصابها من اضطراب عقلي ان يكون نتيجة لصراع بين العاطفة والتقاليد والعرف والدين فقد شهد كل من عرفها بانها كانت منطوية على نفسها ، قاسية في هذا الانطواء ، قليلة الطمانينة الى الناس . ترى الحيطة والكتمان لامرها ، فلما ماتت امها عاشت الوحدة القاسية . ثم كانت مطامع اهلها بعد موت والديها ، وحين بدات خطوب الزمن تتناشها لم تجد من حولها من يدفع عنها غائلة هؤلاء الاهل . كانت اذ ذاك كما تقول في رسالتها تريد ان تجد واحدا تدعوه اباها وامها ؛ وتطلعه على ضعفها واحتياجها الى المعونة . تجد فيه الرجل الذي يتمثل فيه قوة الابطال ومصارعة الصناديد. غير ان هؤلاء جميعا كانوا يحبون شخصية « مي » وصالونها المتحرر ، ولكنهم في اعماق نفوسهم ينطوون على الرجعية العقلية القائمة على التقاليد فلم يكن أحد منهم يرغب في ان تكون « مي » زوجة له حتى « جبران » الذي جاء في رسائله اليها ما يشبه هذا المعنى ..

انما كان يحب هؤلاء فيها صورة المراة الجميلة المتحررة، على صورة الصالونات الفرنسية ويبدو انه لم يكن من الممكن ان يتزوجها احدهم فقد كانت غلبة الطابع الشرقي التي لا تزال تملأ هذه النفوس تحول دون ذلك ..

وذهبت « مي » ضحية لحريتها ..

لقد كتمت مشاعرها وعواطفها عن كل الناس . تقول :

« قد يبوح المرأ للناس بأعظم امانيه . ولكن الأمنية العليا تظل سرا مكتوما بينه وبين نفسه . ولو قد فقد كل شيء لبقيت تلك الأمنية رأس ماله الخاص الملاصق لأخفى ما يخفي من قدس أسراره . »

وقد عاشت الالم وصورته باقسى ما يمكن ان يصوره متالم . تقول :

« في بعض ساعات الالم تشعر بأن للزمن كهفا تحفره الضواري وانت وحدك فيها سجين والناس فوقك شامتون. يرقصون ويمرحون .. »

ولقد احست في ايامها الاخيرة قبل المرض بالضيق والظلام تقول « اشتاق الى الموت في هذه الايام . ذلك لاني لا افهم الحياة التي يقول مرشدنا الروحي انها مشكلة المشاكل . لقد انتشرت في نفسي اليوم (فكرة الموت) مع لذة الشعور بها انتشار الالحان مع الارغن العازف . »

وجاء هذا في ظل شعور صوفي عجيب قوامه ذلك الطابع الديني المتاصل الذي يخشى الخطايا ويرهب من النزوات . ويرى منصور فهمي : « انها من فرط الحساسية المرهفة كان من المتعذر على « مي » ان تشبع رغبات انثويتها مع اي رجل . او ان تهدر كرامة ذهنها المليء : وذوقها الرفيع بمعايشة او مجاراة من ليسوا في رفعة مستواها من العلم والذوق . »

وقد بدا ذلك واضحا في موقفها من « جبران » فقد كاشفته بقدسية العلاقة الجنسية وارسائها على قواعد الدين والخلق ، ولكن جبران كان يؤكد في كتبه المتمردة المستهينة بالتقاليد . وهنا حاولت ان تصرف عاطفتها عنه ، او تصرفه عن رايه ، ثم قضى الموت بينهما ..

يقول مارون عبود : « انها احبت الكاتب الاول جبران فمضى لسبيله ، وكان الكبت وكان الانفجار ولم تقر مي بالتعقيد الفرويدي المزعوم لتتسامى بفنها وتستولي على الامد ان عاطفتها الدينية نمت وتضخمت في طورها الاخير. ان طور الياس والغم والقنوط ومنبعه الكبت يوجه الضعاف الى الملجا المنيع . »

وقد صورت ازمتها قبيل مرضها في رسالة الى جوزيف زيادة :

«منذ مدة طويلة لم اعد اكتب وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفكر لدي .

اني اتعذب اشد العذاب . اني اتألم ابدا في حياتي كما لم اتألم اليوم . ولم اقرأ في كتاب من الكتب ان في طاقة بشري ان يتحمل ما اتحمل . ان هناك امرا يمزق احشائي ويميتني في كل يوم بل في كل دقيقة . لقد تراكمت علي المصائب في السنوات الاخيرة ، وانقضت على وحدتي الرهيبة التي هي معنوية اكثر منها جسدية فجعلتني اتساءل كيف يمكن عقلي ان يقام عذابا كهذا .. »

* * *

هكذا تبدو صورة الادب النسوي المعاصر وقد علاها سحابة قاتمة من الحزن والالم، يغمر الحزن اعلامها، وتبدو الحياة امامهم متعثرة مضطربة ، فيها صراع الموت أو صراع الضرائر او صراع الحضارة : وازمات النفس بين الزواج والحب والامومة الوالدة والعقيمة .

واذا كانت هذه صورة الادب النسوي في الاربعينيات فما اظن انها بعد ذلك قد كشفت عن ابتسامة او اشراق او تفاؤل ، فشعر فدوى طوقان ونازك الملائكة وجميلة العلايلي وجليلة رضا وملك عبد العزيز يعطي نفس الصورة القائمة المظلمة الموحشة، ويكشف عن مزيد من الاحزان والحرمان.

القاهرة   انور الجندي

مدموازيل آيسه

بقلم مبارك ابراهيم

***

« مدموزيل آيسه » — التي قيل انها عاشت بين عامي ١٦٩٤—١٧٣٣ ، فتاة من الجواري الجركسيات . اشتراها — وهي طفلة — سفير فرنسا في استامبول ثم تلقت تعليمها في باريس .

ورسائلها التي نشرت وعليها تعليقات من فولتير عام ١٧٨٧ تصف الحياة الاجتماعية في باريس في مستهل القرن الثامن عشر .

ان الادب الفرنسي لم يمدنا بصورة من صور اللقطاء والمتشردين في اكثر اثارة للشجن من صورة تلك الفتاة الجركسية البائسة من فتيات الرقيق التي سماها اصدقاؤها « مدموزيل آيسه » ..

ومهما يكن في قصتها من خيال يثير الانفعال والاهتمام فان هذا لا يبلغ مبلغ ما في خلقها من تمايز نادر . وما في عقلها من كياسة قد اوفت على الغاية .. وهي التي قد القى بها الزمن في وسط اكثر المجتمعات الاوروبية الحديثة فسادا وفجورا ..

وهذه الطفلة اليتيمة التي جاءت من الشرق قد استمسكت بعروة وثقى من فطرة مهذبة غاية التهذيب . وضمير يشبه في فرط حساسيته عصبا من الاعصاب .

ولو كانت قد سلكت سبيل العابدات القانتات او لو كانت قد اتخذت لها من الدير ملجأ وملاذا لكانت اقل صلاحا وتقوى مما كانت عليه .

وقد اقترفت الخطيئة مرة وكفرت عن تلك الخطيئة بالدموع .. ولكن تلك الخطيئة كادت ان تبلغ حد الفضيلة في عصر انحدر الحب فيه فبات نزوة من النزوات الطائشة وخدعة من الخدع العابثة .

ان « جون رسكن » الكاتب الاجتماعي واحد نقاد الفنون (١٨١٩ — ١٩٠٠) كان يوصي اولئك الذين اذهلتهم روعة مناظر رجال الجبال ان يركعوا وان يركزوا انتباههم الى زهرة تنبت في الصخر !.

واذا قيست محاولات « مدموزيل آيسه » الى ما يزخر به الادب الفرنسي من ذخائر ونفائس لم تزد تلك المحاولات عن ان تكون زهرة من الزهور . ولكنها زهرة قد اوتيت نصيبا غير قليل من الجمال وطيب الرائحة :

ولقد كان لتلك الفتاة مشاركات ادبية مع العظماء من كتاب عصرها . غير انها لم تزعم لنفسها يوما انها فتاة من المسترجلات .

وكان من معاصريها ذلك الفتى الاديب الساخر الذي كان يسمي نفسه « فولتير » .. ولقد كان هذا الاديب رقيقا غاية الرقة مع هذه الفتاة .. ولا بد ان العجب كان يتولاها لو عرفت انه سوف يحيا بعدها حياة طويلة وانه سوف يتناول اعمالها الادبية بالشرح والتعليق .

اما مؤلفاتها ..! واما مؤلفاتها الوحيدة ..! فلقد كان من الممكن ان تحدثنا عنها فتقول انها لا تعدو ان تكون لونا من الوان المطرزات التركية ، زينت بها — وفقا للتقاليد التركية — حجراتها الخاصة في قصر « فريول » ..

وعلى الرغم من هذا كله فان قصة الادب الفرنسي لا يمكن ان تعد قصة كاملة اذا هي اغفلت او تجاهلت اسم « مدموزيل آيسه » .

وبين مجموعة كتاب المذكرات والرسائل في اوائل القرن الثامن عشر تقف هي — من ناحية بعض الاعتبارات — في مكان القمة والصدارة ..

وهي ككتابة رسائل تتميز بالبساطة والنقاء — تقوم حياتها على ملء الفراغ بين موت مدام دي سيفينييه (١٦٢٦ — ١٦٩٦) الذي حدث وعمر المترجم لها سنتان . وبين مولد « لسبيناس » (١٧٣٢ — ١٧٧٦) الذي حدث قبيل وفاتها ببضعة اشهر .

في تلك الفترة التي قاربت الاربعين عاما — وهي مدة عمرها — لم تكتب امرأة في فرنسا — غير هذه الفتاة الجركسية — رسائل يمكن ان تقارن برسائل تلكما الكاتبتين .. وهي وصاحبتاها يمثلن ثالوثا في الادب كان نتاجه جم النفع جزيل الفائدة ..

واليك مجمل قصة تلك الفتاة :.

في شتاء عام ١٦٩٧ او قل في ربيع عام ١٦٩٨ اشترى « شارل دي فريول » بارون دارجنتال الذي كان مبعوثا لفرنسا لدى الباب العالي ، طفلة جركسية تبلغ من العمر اربع سنوات وذلك في سوق من اسواق استامبول .. وكثيرا ما اشترى هذا الرجل من قبل جواري من السوق التركي ، ولم يكن ذلك الشراء مما يشرف ذكراه . ولكنه في هذه المرة كان يدفعه الى الشراء دافع من دوافع الاشفاق الخالص .. كان عمره يومئذ واحدا وخمسين عاما . ولم يكن في نيته ان يتزوج .. ويبدو ان فكرة خطرت بباله قوامها ان يتزود بفتاة جميلة ترعاه في شيخوخته وتعنى به في خريف عمره ..

والكاتب سانت بيف (١٨٠٤ — ١٨٦٩) ببديهته التي لا تخطىء ، يقر هذا التفسير .

وقصت الفتاة قصتها فقالت ان اسمها كان «هايديه» وانها تختزن في ذاكرتها صورة بيت كبير فيه الكثير من الخدم يغدون ويروحون . واجمع اصدقاؤها على ان اباها كان واحدا من الامراء الجراكسة .. ويؤيد هذه الاسطورة ذلك الثمن الغالي الذي ابتاعها به السفير (خمسماية والف

من الجنيهات) كما يؤكدها ذلك الجمال الذي تفردت به من بين اترابها ..

وجاء السفير بتلك اليتيمة الجركسية الى باريس وكفلتها امراة اخيه .. ثم تنصرت تلك الفتاة وسميت «شارلوت هايديه» . ولكنها لم تحتفظ بواحد من ذينك الاسمين فاسقط اسم « شارلوت » ثم اصبح اسم « هايديه » على لسان قريبائها الجدد من الفرنسيين « آيسه » مراعاة لخفة النطق .. و « مدام فريول » العمة المتبناة للفتاة لم تكن على حد قول اصحابها ، بالمراة التي تعالن الناس بفضائحها .. ولما كان مولدها في عام ١٦٧٤ فانها كانت جد صغيرة يوم جيء لها بتلك الفتاة .. وكان ولداها « مركيز دي بون دي فيل وكونت دارجنتال » طفلين صغيرين يصلحان لان يكونا من انداد « آيسه » .

وازسلت الفتاة الى مدرسة يقوم على شئونها جماعة من الراهبات . وتقع غير بعيد من « قصر فريول » .. والمظنون انها قضت هناك بضع سنوات من عمر الطفولة السعيدة .

وفي عام ١٧٣١ اتهمتها بعض الشائعات بانها احبت « دوق دي جفر » .. وقد بعثت ولية امرها في جنيف تستفسر عن جلية الامر .. وكتبت هي في ذلك - يوم كانت في السابعة والثلاثين من عمرها تقول : اني اقرر يا سيدتي على الرغم من غضبك علي . ومن الاحترام الذي اكنه لك انه قد انتابني هوى جارف الى السيد «الدوق» . وانني قد رحت اعترف بتلك الخطيئة .. ولم ير من تلقى اعترافاتي بخطيئتي انها تستحق ان يكفر عنها . ذلك لاني كنت في الثامنة من عمري يوم بدأ ذلك الحب فلما بلغت الثانية عشرة من عمري كان الموضوع كله موضع سخريتي وضحكي .. وكان هو يكبرني بسنتين او ثلاث سنين .. وكنا نحس اننا اكبر سنا من الباقين . وكنا نحب ان نتبادل الاحاديث بينما الباقون يلعبون لعبة «حاوريني» . وكنا نتخذ هيئة القوم الجادين . وكنا نتلقى كل يوم .. وما دار بيننا حديث عن الحب ابدا ذلك لان كلينا كان لا يعرف شيئا عن الحب .. وكنا نتبادل الاشارات والرموز . وكنا نخرج لنشهد الالعاب النارية . ولما كنا لا نفترق ابدا فقد بدا المسئولون عنا يتخذوننا مادة لمزحهم .. وبلغ كل هذا مسامع السيد السفير فصور من حكايتنا قصة من قصص الغرام . فاحزنني الامر واغمني . ذلك لاني رأيت، بوصفي فتاة رزينة فطنة ، ان من واجبي ان اراقب سلوكي . وكانت النتيجة اني اقنعت نفسي بان الواجب يقتضيني ان احب السيد « جفر » .. ولما كنت امراة تقية فقد ذهبت لاعترف فذكرت اول ما ذكرت خطيئاتي الصغيرة ثم اتبعتها بذكر هذه الخطيئة الكبرى. ذلك لاني كنت قد عقدت العزم على ان لا اخفي شيئا . فقلت في اعترافاتي : اني كنت قد احببت فتى من الفتيان .. ! وبدت الدهشة على وجه متلقي الاعتراف وسألني : وكم كان عمر ذلك الفتى ؟ قلت : كان في الحادية عشرة من عمره فضحك وقال : ليس عليك ان تقدمي كفارة عن تلك الخطيئة . واوصاني ان ليس علي الا ان اظل فتاة صالحة نقية .. وان ليس لديه شيء يقوله لي في ذلك الحين ..

وكأن هذه الصورة صفحة كتبها القصاص الدنمركي هانس اندرسن .. (١٨٠٥ - ١٨٧٥) ففيها البراءة وفيها الشك ..

وبعد .. فان الحوادث الاولى في قصة شباب «آيسة» لم تصل الينا الا عن طريق ترجمة لحياتها . ظهرت غفلا من امضاء كاتبها . وطبعت عام ١٧٨٧ . وذلك يوم ظهرت رسائلها لاول مرة ..

وتحدثنا هذه الترجمة التي تنسب الى مدموازيل «ربو» حفيدة تلك السيدة التي كانت توجه اليها تلك الخطابات فتقول : ان «آيسه» قد تلقت تعليما كان يعنى العناية كلها بتثقيف العقل . كما كان يغفل الاغفال كله كل ما يعنى بتثقيف القلب » ..

وتمضي تلك الخطابات فتقول : « منذ اللحظة التي بدات فيها تتعثر في كلماتها الاولى لم تكن تسمع الا اقوالا مليئة بالخطر .. ولما كان النسوة من حولها ممن لا يرعين للوقار حرمة وكن من ربات الدسائس والخدع فقد كن يرددن على مسامعها ان المهمة الوحيدة لامراة لا مال عندها هي ان تجمع ذلك المال .. ! ولكن الفتاة لقيت من يصونها عن التبذل في شخص ولدي مدام دي فريول اللذين كانا يريان فيها اختا لهما .. وكذلك صانها عن التبذل ما نقص في طبيعتها من جرائم الفجور » .

ويوم بلغت الفتاة السابعة عشرة من عمرها عاد سيدها من منفاه في استامبول وقد ساءت صحته الجسمانية بل وقد ساءت صحته العقلية .. ومنذ عودته في عام ١٧١١ الى ان ادركته الوفاة في عام ١٧٢٢ لا نكاد نعرف شيئا على التحقيق عن حياة « آيسه » ..

وهناك من الاسباب ما يجعلنا نفترض ان « لورد بولنجبروك » كان اول من احس بسحر عقل تلك الفتاة .. وهذا الانجليزي المبعد جاء الى فرنسا عام ١٧١٥ وسرعان ما الفى نفسه فردا من افراد اسرة « قصر فريول » .. وكذلك كان من احن الصديقات على تلك الفتاة المركيزة الحكيمة الفاتنة : « مركيزة دي فيلليت » وهي التي تزوجها اللورد عام ١٧٢٠ .. ومنذ عام ١٧١٩ كان اللورد يكتب الى « آيسه » كتابة صديق حميم . وكان يتحدث عنها فيقول انها مهددة بتحول غير ملائم في ملامحها .. ! ومن المحتمل انه كان يشير بهذا القول الى اصابتها بمرض الجدري ..

ويبدو ان الفتاة قد تعرفت الى « فولتير » اول مرة اثناء زيارة لها لقصر اللورد وزوجته .. وسنرى فيما يلي من الصفحات ان هؤلاء القوم قد لعبوا دورا فريدا بل دورا هاما جدا في قصة حياتها . فقد كان اللورد وزوجته صديقين فطنين نافعين لها في تلك الفترة الحرجة من

فترات حياتها . نان جمال « آيـه » الذي كان يفوق الحدود . ومركزها الاجتماعي الذي تحيط به الشكوك جعلا تلك الفتاة عرضة للهجوم من رجال الجيل الحديث الذين مردوا على الإنتقال من خلوة الى خلوة ومن مضجع الى مضجع منغمسين في نزوات طائشة ..

وقام الشعراء يذكرونهافي قصائدهم بالتوقير والتكريم .. وكانت هي تتلقى هذه الالوان من التكريم في غير مبالاة.. وحدث ان جاء يوما « دوق اورليانس » والتقى بها في « صالون مدام دي بارابير » ففتن بجمالها واعلن هواه لمدام فريول . ووافقت هذه السيدة ، والخزي الدائم لها ، على ان تساند الدوق في مسعاه الخبيث .. وظن الوصي على العرش ان هذه الافريقية الصغيرة سوف تسقط فريسة سهلة بين يدي نزواته .. ولكنها ردته ردا غير كريم بل ردا تميز بالتحقير الشنيع .. ولما تمادوا في الالحاح والالحاف توعدتهم بأن تلجأ الى الدين اذا تكررت المحاولة..

وكانت « آيـه » مصدر اشعاع اصيل للبهجة في صالون « مدام دي فريول » .. وتقول كاتبة المذكرات : لما كانت « آيسه » نافعة كل النفع لمدام دي فريول . ولما كانت تخشى ان تفقدها فقد رضيت ، على كره بالغ منها ، ان لا تحدثها حديث الدوق مرة اخرى ..

وفي عام ١٧٢٠ سقط السفير السابق العجوز فريسة للمرض فقامت « آيـه » من فورها واقامت في بيته تمرضه وتعنى به عناية بالغة حتى وافاه الاجل في عام ١٧٢٢ تاركا لها ثروة ضخمة في صورة معاش سنوي ..

وظنت مدام دي فريول ان ابناءها قد لحقتهم الاهانة بهذا السخاء الذي اغدقه السفير على الفتاة . فكان من اثر ذلك ان قامت تعير الفتاة وتحقرها .. وكان الصك يومئذ لم يصرف . فما ان سمعت اول كلمة من مدام دي فريول حتى جاءت بالصك وجعلته طعمة للنار ..

وهذه القصة تقوم اكثر من الف دليل ودليل على ما تحلت به الفتاة الجركسية من فرط احساس ومن استقلال مثالي .. وان المرء ليتولاه الخجل ان يكمل القصة بأن يضيف اليها ان « مدام دي فريول » انتهزت الفرصة للاستفادة من تسرع الفتاة التي جرحت كبرياؤها .. وكان في خاطر الفتاة اشياء اخرى تفكر فيها . فقد جاء يوم ذكرى مولدها . وجاءها الحب في يوم تلك الذكرى..

ان الظفر بقلب تلك الفتاة الذي حاوله محاولة فاشلة كثيرون من ذوي الجاه قد ظفر به طامح من الطامحين المتواضعين . هو « الشيفالييه بليز ماري دايدي » الذي كان يزعم انه سليل بيت من بيوت المجد . والذي كان يبلغ من العمر حوالي الثلاثين عاما ..

وقد كان هذا الطامح فقيرا ولكنه كان شجاعا . وكان جميلا . وكان فوق ذلك اميل الى الغباء والحمق ! .. ولقد وصفه فولتير فقال عنه : انه الفارس الذي لا يعرف الخوف قلبه . والذي لم يدنس من اللؤم عرضه .. ولقد كانت لهذا الفتى مساوىء جيله ولكن رقته وصفاء قلبه كان لا حد لهما . واذا حكمنا عليه بمعايير زمانه فقد كان رجلا مهذبا غاية التهذيب . ويبدو ان اسوأ معايبه انه كان اميل الى البلادة ..

وكما قالت مرة احدى الكاتبات تصف واحدا من اصحابها بان فلانا .. بدلا من ان يكون له قلب فان له عقلين .. فان عقل صاحبنا هذا كان ينطوي على عقل وقلب مجتمعين ..

وكل الشواهد تؤكد انه كان يحب « آيـه » حبا خالصا لا تشاركها فيه امراة اخرى . وظلا وفيين وفاء لا تخالطه الشوائب اثني عشر عاما اي الى حين وفاتها ..

ويبدو أن « آيـه » حتى موت السفير كانت تحاول ان تستبقي حبيبها الغيور واقفا عند حده .. ولكنها .. اذعنت اخر الامر ولانت قناتها ..

وفي عام ١٧٢٤ رأت لزاما عليها أن تختفي عن انظار معارفها . وعقدت العزم على ان تلقي بمقاليد اسرارها الى «لادي بولنجبروك» . وكان اختيارها لموضع سرها اختيارا موفقا ..

وقامت هذه السيدة المجربة المهذبة فاعلنت عزمها على ان تقضي بضعة اشهر في انجلترا .. وطلبت الى مدام فريول ان تسمح لآيـه في ان تصحبها ..

وغادرت اللادي وصاحبتها مكانهما وكان وجهتهما مدينة « كاليه » . ولكن المقام استقر بآيـه في ضاحية بعيدة من ضواحي باريس في حين سارعت اللادي الى انجلترا تقضي وقتها في اختراع الحكايات وإبتداع الرسائل ونسبتها الى « آيـه » ..

وفي الساعة الاخيرة عادت « لادي بولنجبروك » وجعلت غاية جهدها ان تلتقط « آيـه » قبل ان تروح مرة اخرى الى قصر فريول .. وفي تلك الفترة كانت قد وضعت طفلة وسمتها « سيليني ليبلوند » (أي سيليني الشقراء) واودعتها في الدير تحت اسم « مس بلاك » (اي الانسة سوداء) . على انها بنت اخت لورد بولنجبروك.. ونجح التدبير وافلحت الحيلة حتى ان « مدام فريول » ما تولاها الشك يوما في صحة القصة ..

وهذه الطفلة التي سوف نلقاها عما قريب شبت وكبرت واصبحت امراة فاتنة اعجب بها المجتمع الباريسي في الجيل التالي بوصفها « كونتس دي نانيتا » ..

وفي الفترة بين عامي ١٧٢٢ و ١٧٢٦ عاشت « آيـه » حياة يكتنفها الهدوء التام . ولكنها وحبيبها كانا قد جاوزا حد شبابهما الاول ..

ويبدو ان رائحة من روائح الفضيحة لم تفسد صفو « آيـه » .. ويوم حلت بساحتها الهموم كان مصدرها القلق النفساني ليس غير ..

ان رسائل « آيـه » الى حبيبها ليست بين ايدينا .. واني لارجو أن لا احسب من المنكرين للعاطفة إذا انا إعلنت

اني اود مخلصا ان لا تظهر تلك الرسائل في يوم من الايام.
وحدث في صيف عام ١٧٢٦ ان جاءت من « جنيف » سيدة تكبر « آيسه » بعشرين عاما . وهي زوجة من يدعى « م. كالاندريني » . وهي احدى قريبات « لورد بولنجبروك » . ولذلك فقد كانت تجمع بينها وبين جماعة « فربول » صلة وثيقة ..

ودل البحث والتقصي على ان هذه السيدة ليست بالتي ترضى سجاياها كلها ..

واستقبلتها « آيسه » .. ثم افضت اليها بقصتها كاملة .. ولما عادت تلك السيدة الى « جينيف » عرفت « آيسه » انها كانت لها اوفى صديقة عرفتها في حياتها.

وحملت تلك السيدة معها اعمق اسرار « آيسه » واخطرها شأنا .. ويبدو ان السيدة كانت قد رسمت من فورها خطتها لتبدل حياة ايسه تبديلا كبيرا .. .

ان خطابات « آيسه » تشمل كل الرسائل التي تبادلتها مع « مدام كالاندريني » منذ خريف عام ١٧٢٦ حتى سقطت فريسة لمرضها المشئوم في يناير عام ١٧٣٣ ..

وقد بقيت هذه الرسائل في جنيف حتى اقترضها فولتير في عام ١٧٥٨ وهو الذي وضع تلك الرسائل بتعليقات هي غاية في النفع والاهمية ..

ومضت ثلاثون سنة بعد ذلك . وفي عام ١٧٨٧ رأت هذه الرسائل النور فأعيد طبعها في العام التالي . وزينت بصورة جميلة لآيسه . وقد ظهرت في هذه الصورة جميلة يشهد جمالها الشاهدون . قد اوتيت ملاحة في الوجه ، واستقرت راسها ـ بشعرها الجميل ـ فوق كتفين تنوءان بحملها . وليس فيها من الجمال الشرقي غير عينين سوداوين طالت اهدابهما الى حد قد جاوز المدى ..

ان خطابات « آيسه » التي بعثت بها الى « مدام كالاندريني » تمثل تاريخ ضمير انساني قد بدأ يصحو من غفوته ..

وفي الحق ان الخطاب الاول من مجموعة خطابات آيسه باسلوبه الذي يعجز الواصفين . والذي يؤرخ لاساليب القرن السابع عشر يبدو قريب الشبه جدا بخطابات « سيفينيه » الى ابنتها . حتى ليتولاه العجب من ان تلك المشابهة قد تمت كلها بطريق المصادفة .. وان القارىء ليشهد مجون الطفولة في الطريقة التي تمزح بها مع المعجبين بها .. وفي تلك الخطابات لمسات بهيجة تستأهل التصوير .. من هذه اللمسات : الحديث عن الكلب الصغير الذي يعوي في حجر سيدته وقد قلب اناء القهوة وهو يحاول تحية ضيف زائر .. ومن هذه اللمسات في التصوير الذاتي قولها : لقد تعودت ان اتملق نفسي فأقول أني فيلسوفة صغيرة .. ولكني لن اكون ابدا فيلسوفة في قضايا العاطفة ! ..

وخطاباتها كلها تمثل شبابا في عنفوانه لم يخل من طيش الطفولة حتى اذا قرأنا الفقرة التالية من تلك الخطابات كان لزاما علينا ان نذكر انفسنا ان كاتبة تلك الفقرة هي في الثالثة والثلاثين من عمرها : « اني اقضي نهاري كله في صيد الطيور الصغيرة .. واني لاجد في هذا العمل راحة للبال . فالتدريب والتسلية هما من انفع العلاجات للخيالات والاوهام .. وان حماستي للصيد تجعلني امشي على الرغم من اني اشكو رضوضا في القدمين .. والتنفس الذي يحدثه هذا التدريب نافع لي .. ولقد لوحت بشرتي الشمس حتى اصبحت في لون الغراب .. وانك ليتولاك الذعر اذا رأيتني .. ولكني قلما اعبأ بذلك .. وكم كنت اكون سعيدة لو بقيت معك ! .. واني لاعطي من دمي ملء مكيال اذا استطعت ان التقي بك في هذه اللحظة .. »

ولكن سرعان ما يحدث التغيير ! .. فانا نجد آيسه غير سعيدة في قصر « فربول » . ذلك لأن « كونت دارجنتال » وهو اخر من بقي من اعضاء ندوتها قد سافر مع حبيبته الى « الجزيرة المسحورة » .. وقد حلت هي محله في حجرته حتى يعاد تأثيث حجرتها . ولكن هذا التأثيث سوف يكلفها الانا من الفرنكات . ذلك لأن مدام دي فربول كانت تتقاضاها ثمن كل شيء .. وكانت آيسه في ذلك الحين تسائل نفسها : اقادرة هي أم غير قادرة على الاستمرار في صحبة تلك المرأة الجميلة .. والصخابة .. في وقت معا .. والتي عرفت بالترخص في السلوك ؟ ثم تعود فتناجي نفسها بقولها : وعلى الرغم من هذا كله فان عربتها في خدمتي دائما ..

هذا واذا اراد المرء ان يستمتع بقصة عجيبة تصور عادات واخلاق العالم الواسع تحت حكم لويس الخامس عشر فهناك قصة « البرنسيس دي بورنفيل » وكيف اعلنت خطبتها على الملأ لتتزوج « دوق دي روفيك » بعد خمس عشرة دقيقة من وفاة زوجها الاول .. !

وهذه القصة قد حكتها آيسه في هدوء تام وفي احسن اسلوب .. فقد كان « الدوق » احد المعجبين المطرودين ..

ان الحياة في تلك الحقبة كانت حياة عجيبة . فقد كانت حياة انيقة كل الاناقة حقيرة كل الحقارة .. وكانت حياة تملأ جوانبها الحماسة وتملأ ارجاءها « الكلبية » .. وكانت حياة يملؤها الجمال كما يملؤها الفساد . حتى ان الباحث لا يجد اسما يطلقه عليها الا وصفها بانها « الحياة في عصر لويس الخامس عشر » .. وكفى .. !

وما ان جاء ربيع عام ١٧٢٧ حتى الفت آيسه نفسها في بحر لجي من المتاعب .. فالتخفيض المتعاقب الذي حدث في المعاشات الحكومية قد جلب التعاسة للكثير من علية القوم في فرنسا .. ولم يبد على الشيفالييه انه قاسى من ذلك شخصيا . ذلك لانه لم يكن لديه مال كثير يحس بفقده . ولكننا نجده يشارك آيسه فيما نزل بها .. وقد كتب بنفسه خطابا باسم آيسه يستعطف فيه « كاردينال دي فليري » .. وبدأت آيسه تحس بالغشاوات تظلل مستقبلها .. وقد قالت في ذلك الحين انه اذا اتفق لها

ان تتزوج في يوم من الايام فان لزاما عليها ان تضع في العقد نصا يجعل لها الحق في ان تذهب الى جينيف كلما ارادت . ذلك لانها تشتاق الى ان تقصص متاعبها على « مدام كالاندريني » .. ومن ثم فقد بدا صوت النغمة الحزينة التي سرعان ما سوف نعتادها . فهي تقول : انـي لاري كل يوم دليلا على ان ليس هناك شيء يصلح لهذا العالم والعالم الباقي سوى الفضيلة .. اما عن نفسي انا التي لم يسعدها الحظ بسعادة تتيح لها ان تكون في سلوكها كما يجب . وكما تحب . ولكنها - مع ذلك - توقر الفضلاء من الناس وتعجب بهم . فان الاشفاق الذي يبديه نحوي كل الناس (بسبب فقدانها للمال بالطبع) يكاد يبعد عني شبح التعاسة والشقاء ..

ان الجواهر والحلى التي كانت لي قد بيعت ، ولم يبق لي مال اعيش به غير الفين من الفرنكات .. وقد استنبع فقرها المفاجيء ان تقدم لزواجها « شيفالييه دايدي » . وذلك بدافع من دوافع الخير - فيما يبدو - . وبطريقة تكاد تكون « دون كيشوتيه » - رفضت هي ما قد كان يمكن ان يكون سبب اسعادها الى اقصى الغاية ..

وقد كتبت هي الى «مدام كالاندريني» التي كانت احدى من كن يلحن عليها في ان تقبل هـذا العرض تقـول : - « فكري يا سيدتي فيما سوف يقوله الناس اذا تزوج هو امراة تمثل (اللاشيء) .. امراة تعتمد اعتمادا كاملا على صدقات اسرة « فريول » ..

« كلا يا سيدتي ! اني احب جاهه حبا جما . وان لي - في الوقت ذاته - من الكبرياء البالغة ما يصده عن ارتكاب مثل هذا العمل الجنوني .. ولسوف يندم حقا على انقياده لما يوحي به الهوى السخيف العابث .. وسوف لا استطيع ان احتمل الالم الذي يسببه لي اني جعلت منه شقيا بائسا .. واني جعلت من نفسي امراة لم يبق لها نصيب في ان تكون مبعث حب .. »

اما « الشيفالييه » وقد امسى غير قادر على العيش في باريس دون ان يكون الى جانبها فقد فر الى قصر اجداده في « بيريجورد » على ان يظل في منفاه خمسة اشهر .. ومن الواضح ان كل هذه الظروف قد جعلتها تنظر الى الحياة نظرة جدية اكثر مما كانت تفعل من قبل ..

ومن خطاب لها تاريخه اغسطس ١٧٢٧ نعرف اي لون من الوان الشقاء كانت تعانيه في « قصر فريول » . فهي تقول : ان سيدة هذا القصر تعاني من العسر اكثر مما كان يعاني السفير .. اما « الشيفالييه » فما كاد ان يصل الى « بيريجيه » حتى ينسى الشهور الخمسة التي قرر ان يقضيها في الريف وحتى سارع الى العودة الى باريس ليكون قريبا من آيسه .. وكتبت هـي - بطريقتها المستظرفة - تصف هذه العودة بقولها : « اني اعترف اني دهشت دهشة محببة الى نفسي ساعة ان رايته بالامس يدخل حجرتي .. وكم اكون سعيدة لو استطعت ان احبه دون ان يكون لزاما علي ان الـوم نفسي مـن اجل هذا الحب .. »

واننا لينتابنا الاعجاب عندما نقرا رسائل آيسه التي تقول فيها انها على الرغم من انها لم تكن قـط مسترجلة فانها تعنى العناية كلها بالموضوعات الثقافية الراهنة .. فقد كانت « رحلات جلفر » قد نشرت في انجلترا في خريف عام ١٧٢٦ .. وفي ربيع عام ١٧٢٧ كانت آيسه قد قراتها في ترجمة (ديفونتين) وعرفت ان تلك الرحلات من انشاء (سويفت) . واثنت عليها ثناء لا يختلف عما اضفاه - ولا يزال يضفيه - العالم كله على تلك الرحلات ..

ويبدو ان « ديتوش » (فيليب ديتوش كاتب مسرحي ١٦٨٠ - ١٧٥٤) قد كان من اصدقائها . ولكنها يوم ذهبت لتشهد مسرحيته التي سماها « الفيلسوف المتزوج » لـم تعمها الصداقة عن نقدها فقالت : انها كوميدية ساحرة تملؤها العاطفة والرقة ولكنها لا تتضمن شيئا من عبقرية « موليير » ..

و « آيسه » لم تكن اقل فطنة فيما قالته عن الطرفة الفريدة لصديق آخر هو « القس بريفو داجيريل » (١٦٩٧-١٧٦٣) فقد كتبت في اكتوبر من عام ١٧٢٨ تقول : لقد ظهر عندنا كتاب جديد اسمه : « مذكرات رجل نابه قد اعتزل العالم » وهو كتاب لا يستحق الا القليل من التقدير فيما عدا تسعين ومائة من صفحاته تجعل المرء ينفجر باكيا بعد قراءتها ..

ولقد قال اولئك الذين قراوا رواية « بريفو » التـي سماها : « قصة افريقية معاصرة » ، والتي طبعت عـام ١٧٤١ انهاتحتوي علىصورة مشتكملةلآيسه صديقةالمؤلف .

ومن الواضح ان آيسه كانت مصدرا للضوء والنشاط . وهي تلك المراة الشابة التـي كان « لورد بولنجبـروك » يراسلها في كل بريد .. ومن كانت هذه مكانتها فانها ليست بالمراة التافهة ..

ان «فولتير» يؤكد القول بانها كانت تعـرف الحوادث معرفة دقيقة يحوطها الاستقلال في الرأي ..

وفي عام ١٧٢٨ كانت آيسه في حاجة الى كل ذرة من العطف يمكن ان تحصل عليها فقد كان « الشيفالييه » في شهر يونيو من ذلك العام مريضا مرضا شديدا حتى لقد كانت تواجه صورة الموت ترتسم على وجهه .. وفي هذا تقول : « ان الواجب . والحب . والقلق . والصداقة . هي كلها امور تقلق بالي وتضني جسدي . فانا في حالة هياج قاس شديد .. ان جسدي يتفتت . ذلك لان الاوهام والاحزان تغشى جوانبه من جميع اقطارها .. واذا الم بذلك الرجل ملمة فسوف لا استطيع تحمل الحزن الشديد الذي سوف ينتابني . فهو اليوم الصق بي من كل زمان مضى .. وهو يشجعني على اداء واجباتي .. »

ان حالة الفقر المدقع التي كانت تعيش فيهـا يومذاك اسرة « فريول » لم تكن لتجعل من بيت آيسه بستانا من

غزو الفضاء

اغز الفضاء بعزمك المتوقد
واجب نداء العلم دون تردد
واكشف لنا لغز الفضاء وسره
بالعلم ينقاد الذي لم ينقد
اليوم قد بدأ الفضاء وعصره
فكن ابن عصرك ناظرا عبر الغد
ودع الجمال وعصرها فلقد مضى
عصر الجمال وجاء عصر الفرقد
لا تلتفت للامس فالامس انقضى
والمهتدي بالامس ليس بمهتدي
والى الامام .. إلى العلاء ولا تهن
ما عاش من وهنت قواه بسيد

القاهرة — الغزالي حرب

الزهر يانعا . ففي شتاء عام ١٧٢٨ كان هؤلاء القوم من ذوي الجاه والشأن يتضورون جوعا .. ولم تكن مائدتهم تحمل طعاما يشبع من جوع .. وكانت « آيسه » تتوقع دائما ان يكون مصيرها مصير ذلك الحصان الذي كان سيده ينقص من طعامه كل يوم قبضة من الشعير حتى هلك الحصان جوعا.. وقد كان في توقعهاهذا شيء من المبالغة المازحة. ولكن الفقر كان على اية حال يثقل كاهلها .. فقلما كانت تجد من المال ما يكفي حاجاتها اليومية .. وكانت تحسد «الشيفالييه» على قدرته على الاقتصاد حتى يتمكن من جمع صداق تلك الصغيرة المسكينة التي تقيم في الدير . والتي كان يحن اليها قلب آيسه . والتي كانت قلما تزورها . والتي كانت زياراتها لها كواحدة من الغرباء ..

وقد امضت «آيسه» خريف عام ١٧٢٩ في « بون دي فيل » المقر الريفي لاسرة « فريول » . وهو قصر يقع بين « ماكون » و « بورج » .. وقد انتهزت فرصة مجاورة هذا القصر لسويسرا وقامت بزيارة ــ طال عهد الوعود بها ــ لمدام « كالاندريني » في « جينيف » ..

وكانت هذه الزيارة ذات اهمية في تاريخ حياتها من الوجهة النفسية . فقد عادت من تلك الزيارة وهي اكثر قلقا . وابلغ حيرة . واشد غما ..

واول ما خطر ببالها ساعة ان خلت الى نفسها تناجيها هو ان تدخل الدير . ولكن « مدام كالاندريني » لم تقر هذه الفكرة وسرعان ما تخلت هي عنها اذ رات ان الواجب يقتضيها ان تظل الى جانب « مدام فريول » التي بدأت تصبح كسيحة مقعدة ..

وقبل ان تغادر « جينيف » حاولت مدام «كالاندريني» محاولة صادقة ان تقنعها بأن تضع نهاية لعلاقاتها الغامضة المبهمة مع « الشيفالييه » . وحاولت ان تظفر منها بوعد انها اما ان تتزوج « دايدي » او ان تمتنع عن رؤيته ..

وفي هذا يقول الكاتب : « ان من السهل على المرأة النصف التي خلا من الهم قلبها ان ترسم ــ وهي في مخدعها ــ خطة معينة من خطط السلوك . حتى اذا طلع النهار كان من العسير تنفيذ ذلك الوعد وتحقيق ذلك الحلم .. وكتبت « آيسه » في ذلك تقول : ان كل الذي استطيع ان اعدك به هو اني لن آلو جهدا في تنفيذ واحد او اخر من تلكما الاقتراحين .. ولكن اذكري يا سيدتي ان هذا الأمر سوف يكلفني حياتي .. ان مثل هذه الكلمات يمكن ان تقال في غير عسر . ولكن في حالة « آيسه » فقد انبعثت تلك الكلمات من القلب .. وقد قامت بالتضحية وقد كلفتها التضحية حياتها .. وقالت ــ فيما قالته ــ : كيف استطيع ان امحو هوى عارما ؟ وكيف استطيع ان اتخلى عن صداقة هي من احب الصداقات الي واثبتها كيانا لدي ؟ مضافا الى كل ذلك العرفان بالجميل .. انه لشيء جد مخيف .. ليس الموت بأسوأ منه .. ! وعلى الرغم من ذلك كله فسوف اصدع بأمرك ما دمت تريدينني ان افعل. حقا ان ضميري « ومدام كالأندريني » كلاهما لا يرحم .. !

وفي ابان هذا التوتر في الأعصاب . وفي اثناء هذا الهياج وهذا الغم الذي ملأ عليها اقطار نفسها زارت ــ وهي في طريقها الى باريس في شهر نوفمبر ــ زارت خلسة مدينة (سنس) لترى ابنتها الطفلة .. وفي الخطاب الذي تصف فيه ما دار بينهما يقرأ المرء حديثا يمزق القلب اسى وحزنا .. فالطفلة الصغيرة الرقيقة ــ بوحي من غريزتها التي لا تكذب ــ قد علق قلبها بهذه الصديقة المجهولة .. ولما حانت ساعة التوديع مزقت الطفلة ــ بمزيج من الألم ومن السرور ــ مزقت القلوب . وذلك بان ظلت تعانق امها (التي لا تعرف انها امها) وهي تبكي وتقول : ليس لي اب ولا أم . فارجو ان تكوني لي اما . ذلك لاني احبك كل الحب . وكأنك انت امي حقا .. !

ولم تستطع « آيسه » ان تتسلل بل بقيت في الدير اسبوعين اخرين . شقية اكثر منها سعيدة .. وظلت الطفلة تتولى خدمتها في حماسة الاطفال . وقد كفت عن اللعب مع صويحبات لها . وهي تبالغ في ملاطفة تلك المرأة المسكينة .. واخيرا رات الام المسكينة نفسها مضطرة الى الارتحال مخافة ان ينكشف الستر . وينفضح السر اذا بدا عليها الانفعال.. وعادت الى باريس حيث كان «الشيفالييه» في انتظارها . وتبددت كل مقاصدها الطيبة في زحمة الفرح بلقائه .. ولم تكن تدري ماذا تعمل .. وفي اي اتجاه تسير .. وفي عام ١٧٣٢ ساءت حالتها سوءا افزع كل من حولها .. وكان بضعة من اصحابها في غفلة عن حقيقة حالها . فقد كانوا لا يعرفون شيئا عن احزانها الخفية التي كانت تدمر حياتها تدميرا .. ولكن النسوة من حولها كن يعرفن انها تهدف الى الموت بخطى سريعة فجاءت

« مدام دي تنسن » التي كانت تجازيها حبا ببغض .. جاءت بومذاك تبدي لها مظاهر المودة وتكشف عن دلائل الحب .. اما « الشيفالييه » فقد نال منه الهم والقلق اذ قد علم اخر الامر انه عما قريب سيفقدها فبات يطوف بحجرتها حتى ضاق النساء به ذرعا وحتى نهرنه وابعدنه..

وفي الخطاب التالي الذي كتبته « آيسه » حوالي عيد الميلاد من عام ١٧٣٢ ــ وهي تصور نفسها ــ تقول : ــ انه كان يتحدث الي في موضوع معين . في تعقل . وفي ود وحب . اشد ما يكون التعقل . واعمق ما يكون الود والحب . وقد صارحني بانه انما احبني لذاتي.. ثم ابدى اهتمامه بالصغيرة المسكينة التي لا يستطيع المرء ان يحقق لها مكانا في المجتمع ..

كل هذه الأشياء قد فرضت علي ان اكون دقيقة في معاملتي له .. ولقد ظللت زمنا طويلا إعاني ما اعاني من عذاب الضمير .. والآن فانه اذا لم يف بوعده فسوف لا إراه بعد اليوم ..

ومن ثم ترين يا سيدتي ما اتخذته من قرارات لن احيد عنها . ولكنها قرارات قد تجعل لحياتي حدا وشيكا ..

واذا اريد تفسير هذه الفقرة بدا لنا ان « الشيفالييه » ــ وقد سوف في امر الزواج تسويفا طال به الامد ــ كان به ولع شديد ان يفي بوعوده فيتم زواجه بها . وهو زواج لن يبقى غير بضعة اسابيع .. وكانت هي قد استخلصت منه ــ فيما يبدو ــ وعدا او وعودا . ولكن لم يف بشيء مما وعد .. وماتت « آيسه » وهي غير متزوجة ..

« وآيسه » في ساعاتها الاخيرة اصبحت تقية غاية في التقى .. ولكنها تقول لم تبلغ حد احتمال مزاح صويحباتها الخليعات وهن يذرعن ارجاء « باريس » طولا وعرضا بحثا عن رجل من رجال الدين يجيء ليلقنها اسرار دينها .. واخيرا عثرن على واحد قد كان ــ فيما يبدو ــ من شيعتهن . وهو رجل كان ابوه من كتاب المسرح . وكان خصما لموليير . وتلقت « آيسه » على لسان هذا الرجل الاسرار الدينية ..

وقبل موتها ببضعة ايام كتبت مرة اخرى الى « مدام كالاندريني » . وعبارات هذا الخطاب هي اخر كلمات لدينا مما جرى به قلم تلك البائسة .. قالت :

« لست اقول لك شيئا عن « الشيفالييه » .. ان اليأس يتولاه وهو يراني مريضة مرضا قاتلا .. انك لم تشهدي ابدا هوى اشد غراما من هوى ذلك الرجل . وقد بدا في صورة تمثل العاطفة كلها . والعظمة كلها . والسخاء كله.

اني لست قلقة على مصير الصغيرة المسكينة .. ان لها ــ في شخص « الشيفالييه » صديقا وحاميا يحبها اخلص الحب .. فوداعا يا سيدتي العزيزة .. ! لقد اصبحت ضعيفة كل الضعف حتى لا استطيع ان اكتب اكثر مما كتبت . ولا ازال احس حلاوة واستشعر لذة في ان افكر فيك .. ولكني لست استطيع الاستسلام لهذه السعادة دون ان اذرف الدمع يا صديقتي الغالية .. ! ان الحياة التي عشتها كانت حياة يملؤها الشقاء .. وكيف استطيع ان اكون سعيدة وانا وحيدة ؟ لقد كنت دائما اخشى ان افكر .. ولم تفارقني الملامة يوما واحدا . وذلك منذ اللحظة التي تفتحت عيناي فيها على ما اقترفته من جرم في حق الفضيلة ..

ولماذا يتولاني الجزع اذا فارقتني الروح وانا اعرف ان الله سبحانه هو الخير كله .. وان اللحظة التي ابدا فيها الاستمتاع بالسعادة الحقة هي تلك التي تفارق روحي فيها هذا الجسد ..

وبعد .. ففي اليوم الرابع عشر من مارس عام ١٧٣٣ ماتت « شارلوت اليزابث » آيسه وقد ناهزت الاربعين عاما ودفنت في مقبرة اسرة « فريول » في كنيسة « سان روش » في مدينة باريس ...

القاهرة **مبارك ابراهيم**

(تتمة المنشور في صفحة ١١)

ساقطع الالسنة يا عبد الله بالتساهل والاغضاء .. ثم سكت مليا وصاح الشدة تكثر الاقاويل يا قوم فيندلع الحريق .

فرد عبد الله مقاطعا : كلا يا امير المؤمنين الحزم الحزم مع الناس .

فابتسم معاوية ابتسامة ماكرة . وقال في تحبب ما اغباك ايها اللجوج المكثار ! لقد جاء في قول يزيد بن مفرغ لعنه الله :

الا ابلغ معاوية بن حرب مغلغلة احد من اليماني
أتغضب ان يقال ابوك عف وترضى ان يقال ابوك زاني

افتدري ماذا صنعت به !

فقال عبد الله : علم ذلك عند امير المؤمنين .

فتنهد معاوية كمن يزيح عن صدره ركاما من الاشجان، وقال في همس : لقد توعدته فاستكان ثم عفوت عنه ؛ ولو كنت قطعت رقبته لاصبح شهيدا يذكره الناس مع الابطال الصناديد ولجعلوا مصرعه كمصرع حجر بن عدي انشودة الكرامة والعزة يحدو بها الركبان ! ثم رووا شعره الشائن وزادوا عليه واطالوا فيه .. هكذا الناس ... اما الان فهم يستنطقون يزيد بن مفرغ فلا يجيب ! وهو ــ بعد ــ خائف راهب يزعجه شبح الدم المطلال .

ثم صفق الخليفة بيديه فاتى صاحب كتابته ، فامره ان يكسو عبد الله بن عامر مطرفا مذهبا ، وان يكتب اليه بضيعة واسعة في حمص !

وخرج ابن عامر مسرورا منتشيا يلهج بالثناء على زياد وامير المؤمنين .

الفيوم **محمد رجب البيومي**

ابو بكر بن دريد الازدي

بقلم عبد الخالق عبد الرحمن

* * *

ازدهرت الحياة العقلية في القرن الثاني الهجري في الحواضر الاسلامية ازدهاراً كبيراً ، فازدهر الادب وتفتحت ازهاره ، واينعت ثماره ، وتضوع عبيره ، واشرق ضياؤه بما حفل من رائع القول ، وبديع الفكر ، وجيد المعاني ، وعبقري الخيال ، وكانت البصرة من الحواضر الاسلامية التي تعج جوامعها ومدارسها بنخبة ممتازة من فطاحل العلماء واكابر البلغاء ، ففي سنة ثلاث وعشرين ومائتين هجرية ولد ابو بكر بن دريد الازدي في البصرة ونشأ وترعرع فيها واخذ العلم عن ابي عثمان الاشانداني وابي حاتم السجستاني والرياشي والتوزي وعبد الرحمن بن اخ الاصمعي وغيرهم من كبار العلماء الذين بزغوا في ذلك الزمان حيث كانت البصرة مهبط العلم ومجمع الادباء والشعراء وكانت مدارسها وجوامعها تكتظ بطلاب العلم والمعرفة الذين يفدون عليها من مختلف البلدان لارتشاف مناهل العلم العذبة .

قال ابن خلكان : انه نشأ بالبصرة وتعلم فيها وقال السيوطي ولد بالبصرة وقرأ على علمائها . لقد برع ابن دريد في اللغة فاصبح من كبار علمائها وقد روى من اخبار العرب واشعارهم الشيء الكثير كما تشهد بذلك مصنفاته ومصنفات تلاميذه .

كان ابن دريد شديد الذكاء ، حلو العبارة ، جزل اللفظ ، لقد حفظ اكثر دواوين شعراء العرب ، وانتقل شاعرنا بين فارس وعمان وبغداد قال ابن خلكان : (ثم انتقل من البصرة عند ظهور الزنج وسكن عمان ثم سار الى البصرة وسكنها زمانا ثم خرج الى نواحي فارس ثم وصل بغداد) .

كانت البصرة مستقر ابن دريد لمكانتها العلمية وقتذاك ، وبزغ نجم ابن دريد وملأت شهرته الافاق فقلده عبد الله الميكالي ديوان فارس فكان يعمل برايه ولا ينفذ امر الا بعد توقيعه .

وصل ابن دريد بغداد سنة ٣٠٨ هجرية فاقام بها مدة طويلة واتصل بادبائها وعلمائها وقد نزل ضيفا على علي بن محمد الخواري فاحسن وفادته .

كان شاعرنا كريما جوادا اذ كان ابوه من اولي اليسار وكان لابن دريد مجالسه العلمية والادبية التي يستفيد منها الحاضرون وله المكانة السامية قال المسعودي في مروجه : (كان ابن دريد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن احمد واورد اشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطورا بجزل وطورا برق) . وقال ابو الطيب اللغوي في كتاب (مراتب النحويين) « وابن دريد هو الذاي انتهت اليه لغة البصريين كان احفظ الناس واوسعهم علما واقدرهم على الشعر » .

ويجمع ابن دريد صنوفا مختلفة في شعره فنرى فيه النسيب والمدح والهجاء والحماسة والوعظ والحكمة فمن قوله :

من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما ... راح به الواعظ يوما او غدا

ومن قوله في قصيدة يرثي ابا جعفر محمد بن جرير الطبري حيث يقول :

ان تستطيع لامر الله تعقيبا ... فاستنجد الصبر او فاستشعز الحوبا
وافزع الى كنف التسليم وارض بما ... قضى المهيمن مكروها ومحبوبا
ان العزاء اذا عزته جانحة ... ذلت عريكته فانقاد مجنونا

ويستمر في قصيدته هذه الى ان يقول :

من صاحب الدهر لم يعدم مجلجلة ... يظل منها طوال العمر منكوبا
ان البلية لاوفر تزعزعه ... ايدي الحوادث تشتيتا وتشذيبا
اودى ابو جعفر والعلم فاصطحبا ... اعظم بذا صاحبا اذ ذاك مصحوبا
ان المنية لم تتلف به رجلا ... بل اتلفت علما للدين منصوبا

ويختم قصيدته بقوله :

ان يندبوك فقد ثلت عروشهم ... واصبح العلم مرثيا ومندوبا
ومن اعاجيب ما جاء الزمان به ... وقد يبين لنا الدهر الاعاجيبا
ان قد طوتك غموض الارض في لحف ... وكنت تملأ منها السهل واللوبا

ومما يدل على ولعه في العلم والدرس والاستقصاء هو قوله :

ومن تك نزهته قينة ... وكاس تحث وكاس تصب
فنزهتنا واستراحتنا ... تلاقي العيون ودرس الكتب

ويظهر لنا ان الحسد والبغض والنفاق وبخس الناس اشياءهم له السوق الرائجة في ذلك الزمان ويستبان لنا من قوله :

وما احد من السن الناس سالما ... ولو انه ذاك النبي المطهر
فان كان مقداما يقولون اهوج ... وان كان مفضالا يقولون متزد
وان كان سكيتا يقولون ابكم ... وان كان منطقيا يقولون يهذر
وان كان صواما وبالليل قائما ... يقولون زراف يرائي ويمكر

واخيرا يدعو الأنسان العاقل بأن لا يعبأ باقوال الناس من ذم وثناء وان لا يخشى المرء احدا الا ربه فيقول :

فلا تحتفل في الناس بالذم والثنا ... ولا تخشى غير الله فالله اكبر

وشعره كثير لا استطيع بهذه العجالة ان اورد اكثر مما ذكرت ولا بد لي ان اذكر بعض مؤلفاته التي منها كتاب الاشتقاق وهو كتاب نفيس طبع في « لايبزك » عام ١٨٥٤ م . والوشاح وكتاب المقتبس وكتاب « المجتنى » طبع في حيدراباد وكتاب رواد العرب ومنها كتاب ادب الكاتب وكتاب « الامالي » وكتاب « تقويم اللسان » وغيرها اما تلامذته فاخص منهم بالذكر ابوسعيد السيرافي النحوي ،

مناظر الحرب

عن شاشة التلفزيون

●

هذي الجموع وهذي النار تستعر   والنفس هائجة ايمانها الظفر
جن الرجال فكل قلبه حجر   لا الموت يرهبه لا الرعب لا القتر(١)
نار من الجو اذوت كل عاطفة   وباتت الرحمة البيضاء تحتضر
واطلق المدفع المجنون صيحته   جهنم نارها في الكون تنصهر
ومادت الارض وارتجت على لجب   من الجيوش ودك الطود (٢) والاثر
وعين كل الى الافاق شاخصة   ترصد الخدعة الحمرا ، فينبهر
تزاحم الجيش وامتدت ذوابله   فالارض مائجة والجو معتكر
فالبر والبحر والاجواء قاطبة   تعج بالخلق يوم الصعق (٣) ينتشر
وازبد اليم اذ جاشت به سفن   تمج نارا الى الاعماق تنحدر
فالساق تحملها الامواج ضاربة   شلوا بشلو وارمانا بها ثغر
هذا جريح يهادي الروح محتضرا   والعين دامعة والقلب منهصر
انينه حرقة لهشاته الم   ومضات ناظره في طيها ذكر
تمثل الطيف اخوانا ووالدة   وزوجة بربيع العمر تنفطر
فرقرق الدمع في الاماق وانحدرت   حرى تكوي جروحا دونها الخطر
تخيل الموت فانهدت فرائصه   وايقن الفوز فاشتدت به الغير
وعاد مبتسما في صدره نغم   في روحه شمم في قلبه الكبر
فقال يا ارض ميدي وانبرى حذرا   يرجو النجاة ، وقد يعنو له القدر
وكر منتفضا يمشي على جثث   كانه الليث لا يرتد يبتدر
وصال مقتحما يسعى الى سقر   يقول : يا سيف سطر جاءك الظفر
وجاءت الراحة الكبرى فانبه   صوت الضمير ، فقال جن يا بشر

(١) القتر : رائحة لحم الشواء . (٢) الطود : الجبل . (٣) يوم الصعق : يوم القيامة .

عيسى ميخائيل سابا

ومنهم ابو عبد الله المرزباني صاحب معجم الشعراء ومنهم ابو الفرج الاصفهاني صاحب « الاغاني » ومنهم ابو علي القالي صاحب « الامالي » ومنهم ابن خالويه النحوي اللغوي وغيرهم .

ولفظ ابن دريد انفاسه الاخيرة يوم الاربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان سنة احدى وعشرين وثلاثمائة ببغداد

رقد رثاه جحظة البرمكي فقال :

فقدت بابن دريد كل فائدة   لما غدت ثالث الاحجار والترب
وكنت ابكي لفقد الجود منفردا   فصرت ابكي لفقد الجود والادب

وهكذا طويت صفحة هذا الشاعر الخالد والادب الملهم والعالم المدره .

بغداد   **عبد الخالق عبد الرحمن**

دون كيشوت : سرفانتس

بقلم ليستر كروكر

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

دون كيشوت وسانخو بانزا ! فارس مانخا النحيف وخادمه الشره البدين لا يزالان راكبين جواديهما ، مدى القرون متحصنين بخلودهما . الأول على حصانه الأعجف ينازل الطواحين ويتحدى السحرة بينا الثاني يحلم بالذهب والحاكمية وهو ممتط حماره . انهما يحملاننا على الضحك وعلى الحزن لانهما لا يفوزان الا بصنوف التعذيب والضرب من عالم لا مبال وغير مدرك او قاس . ان دون كيشوت وسانخوبانزا كاوليسيس ودون جوان وفاوست بين القليل من ابداعات الأدب الأسطورية التي تصل الى اعماق الشعور مجسدة الحقائق الشاملة للموقف الأنساني .

كم تكن قصة دون كيشوت عمل انسان شاب بل عمل رجل تمرس بمحن الحياة المرة. تمكن سرفانتس بحساسيته وتفكيره من ان يرى نفسه ويرى العالم بأسلوب موضوعي حكيم . لقد تعلم الأبتسامة من العذاب . كان بطلا مخاطرا وحالما خائب الظن ، قمص روحه في جلد فارس جوال مضحك ، ومع ذلك ، تفوق على نفسه عاكسا ازمة اسبانيا في انحطاطها وازمة انسانية (النهضة ــ الأوربية) والفوضى الروحية للانسان المعاصر .

ولد ميكول دي سيرفانتس في ٢٩ ايلول ١٥٤٧ وكان ابن جراح متنقل تبع عائلته من مدينة الى مدينة متنشقا نكهة المقاطعات الأسبانية متغلغلا في الروح الأسبانية كما كانت في جميع اضرابها وطبقاتها من رجال ونساء ؛ من المحترمين الى المحتقرين المبغوضين . كل هذا اصبح جزءا منه وهو ما نفخه في كتابه بعدئذ في نسمة حية جلية . ان مشاعر البلد واحساسات الحركة والاجواء تفعم الرواية، كتصنيف الشخوص التي تملأ طيف النور في المهزلة الأنسانية ، وهي تنساب على صفحاتها بواقعية طرية بلا واسطة . كانت دراسات سرفانتس ــ في شبابه ــ نزرة قليلة ، الا ان حماسته للمعرفة ظلت ملازمة له . ففي سنة ١٥٦٨ انتهز الفرصة للذهاب الى ايطاليا بمعية الكردنال اكوافيفا . ومن مكوثه الطويل في ايطاليا ومن كتابات ارازموس نهل روح الأنسانية ومحبة الحرية . وتعشقا منه بالمجد قرر الدخول في السلك العسكري . وقد حارب ببطولة في معركة ليبانتو البحرية الحاسمة (١٥٧١) . كان محموما في يوم المعركة وقد ابى البقاء تحت ظهر المركب بل اندفع الى المعمعة فاصيب بجرحين في الصدر وبتحطيم يده اليسرى . وهذه الجروح اصبحت مجده العظيم . انه سمى نفسه (اقطع ليبانتو) بكل افتخار . وعلى الرغم من عجز يده اليسرى فهو لم يبال بل حارب في حملات عسكرية اخرى ضد الكفار . وفي ١٥٧٥ ابحر الى الوطن آملا ان ينال جزاء خدمته البطولية للملك والبلاد . ولكن القراصنة استولوا على سفينته فظل خمس سنين عبدا رقيقا في الجزائر . كان سرفانتس يفضل الشرف والحرية على الحياة وقد خاطر بحياته في عدة محاولات بطولية للنجاة غير انها خابت جميعا . واخيرا افتداه من افتداه فرجع الى اسبانيا سنة ١٥٨٠ بعد اثنتي عشرة سنة من مغادرته اياها .

كان على سرفانتس ان يقضي بقية ايامه مكافحا الفقر بعد ان لم يعترف به احد في بلده . تزوج فجاءت النتيجة تعسة . ثم لجأ الى حياة التجوال مرة اخرى فاصبح ضابط توجيه في الارماد التي لا تغلب ، وفي هذه الحياة تردد الى بسطاء الناس وعظمائهم ، وتعارف بالمحتالين الشرفاء والمومسات والطفيليات المحترمة دعية الصلاح . وفي سنة ١٥٩٠ عين موظفا في احدى المستعمرات الامريكية وهناك رجا ان يعيد بناء حياته فخاب ايضا كما خاب قبلا . ثم بقي في مكان واحد سجينا في اشبيليه بسبب افلاس احد عملائه .

وفي الوقت نفسه كان يكتب الشعر وقصة رعوية وماساة (غير منشورة) وكوميديات طويلة وقصيرة . انه عجز عن نيل المجد من طريق السيف فليصنع آماله بثقة في قلمه . الا ان هذه الاعمال الادبية لم تحرز الا نجاحا ضئيلا ، ومع ذلك فقد جسدت جانبي عالم سرفانتس اللذين اندغما في دون كيشوت ــ جانب المثالية المتعالية المكرسة للجمال والبطولة والفن ، وجانب الواقعية الساخرة اللاذعة التي ترى الناس كما هم .

في سنة ١٦٠٢ سجن سرفانتس مرة ثانية في اشبيلية لاسباب غامضة . وفي سنة ١٦٠٤ حدثت له مناوشة مع الشرطة في « بلد الوليد » وبنتيجة التحقيق اطلق سراحه بعد ان اثير الغبار حول شرف اخته وابنته غير الشرعية التي كانت ثمرة علاقة قديمة بسيدة برتغالية . وفي عام ١٦٠٥ ظهر القسم الاول من دون كيشوت فكان نجاحا شعبيا هائلا بغير ان ينيله مالا او اعترافا في عالم الادب الذي رنا اليه . وقد عنفه لوب دي فيفا كالسابق(١) . اما اشهر ثاني مؤلف له (القصص النموذجية) فقد برزت للوجود في ١٦١٣ . واما الفترة التي تخللت هذين التاريخين فخصصت للتفكير بلا شك في القسم الثاني العظيم من دون كيشوت انهى سرفانتس هذا القسم في ١٦١٤ بعد ان اثاره نشر ملحق مزيف لمقلد مجهول تحت

---

(١) هو من الشخصيات الادبية الاسبانية وقد كان على طرفي نقيض مع سرفانتس ، المترجم .

الاسم المستعار « انيلايندا » . خرج هذا القسم من المطبعة سنة ١٦١٥ ، الا ان السفرة الصعبة كانت على وشك الانقضاء . اذ ان الموت — في ٢٣ نيسان ١٦١٦ — اغمض عيني كاتبين عظيمين ساميين هما ميكول دي سرفانتس ووليم شكسبير . وقد خدع كلاهما الموت تاركا وراءه روحه لتحيا وتعمل بين اناس اخرين حياة حقيقية خالدة .

لماذا تعد دون كيشوت احد ابداعات الادب العظيمة ؟ سبق ان اشرت الى معرض شخوصها وعلى راسهم دون كيشوت وسانخوبانزا . ان هذه الشخوص هم اناس يحيون ويفكرون ويشعرون ويعملون . ان السيد الريفي المدعو الونسو كويخانو (او كويخادا او كويسادا) وسانخوبانزا رجلان معتادان حياة الدعة والسكون، وفجاة يثار وجودهما الرخي هذا بتأثير من سحر قصص الفروسية فينتحل الاول صفة فارس جوال يسميه المؤلف (دون كيشوت) على ان يتحمل مسئولية اعادة العصر الذهبي الى الارض . اما سانخو فهو بدوره تهزه الافاق المتفتحة امامه من طريق ايمان دون كيشوت بقواه الخاصة . ولاول مرة في التاريخ الادبي لا تكون شخوص القصة اسرى دور معين — دور الفارس والخادم وما اليهما . ان الشخوص ترى انفسها بصورة موضوعية وتظهر ذواتها في مصير تقرره هي ، وتمارس حياتها الخاصة وتنشر اساطيرها . ان حياتها الدينامية تضطرها الى خلق ذرات جديدة وتشكيلها (على نمط معين) .

ان الشخوص لا تقوم بالفعل فقط بل برد الفعل ايضا . فبعضها يؤثر في بعض ان تعديلا في السلوك او اعتداء على الغير . ينموكل من دونكيشوت وسانخو بانزاويتطوران في صراع بينهما وبين مختلف الناس يواجهونهم وهؤلاء يتأثرون بهما بدورهم . (وهذا التأثير التقابل) هو بالايجاز السبب الذي من اجله نعد (دون كيشوت) اول رواية حديثة . لقد خلق سرفانتس شخوصا في مجموعتها العضوية المركبة وجعل حياتها تسيل في مجراها وسط ثقافة عضوية حية شاملة . ان تعقد الحياة تقتضي تعدد المستويات التي تعكس بعضها بعضا . يحمل دون كيشوت ماضيه معه ، فهو لا ينسى ولا نحن انه (في الحقيقة) الونسو كويخانو وهو يوجه افعاله في بوتقة مستقبله المرجو . تتحطم آمال الشخوص بسبب من تحطم آمال الكاتب نفسه ، كما تتشابك هذه الامال بتأثير من المؤلف المراكشي المزعوم . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان هذه الامال تتقوى لدى البطلين في القسم الثاني (من الرواية) بعد ان كانا شخصين (معلومين) في القسم الاول المنشور وفي الملحق المزيف ...

ثم « لننظر » الى القصة نفسها » انها تتحرك قدما الى امام ، وهي تفوح حكمة وفكاهة بسيطتين طبيعيتين بغير انقطاع كالحياة نفسها . وليست الحكاية سوى مهزلة مضحكة على الرغم من النشاز المقصود ، نشاز القسوة والياس . ذلك ان سرفانتس لم ينس قط رغبته الاصيلة في الازدراء بقصص الفروسية — والحق يقال — ان العمل الادبي خرج من بداياته البسيطة ووجد سرفانتس نفسه مضطرا الى تأليف قصة ذات مغزى رمزي عظيم ، ومع ذلك تستمر الفكاهة الى النهاية المرة . يأخذ سرفانتس بزمام كل ضرب من ضروب الكوميديا . فتجد الجلد والتهريج سائدين (في الكتاب) كما تجد الفكاهة اللطيفة الهادئة التي تنبىء عن الاخلاق والسخرية والحزن . اما نكاهة الكلمات فهي متطورة اعلى تطور في الكنايات والامثال والتحريفات ، وبعض نتائجها الهزلية « موجهة » كما هي الحال في مسألة الهجوم على الطواحين التي فيها ما فيها من معنى . وما عدا ذلك ترى محض كوميديا ، وهزلا قلبيا ذا طبيعة غريبة قصد اللهو حسب .

ومن مهازل السخرية أن تعد (دون كيشوت) مجرد مغامرة هزلية بل حتى قصة للاطفال . في حين انها اعظم قصة فلسفية في الادب الغربي الى القرن العشرين على الاقل . وعلى الضد من القصص الفلسفية ليومنا هذا — كقصص توماس مان وكافكا اوسارتر — ليست (دون كيشوت) قصة ثقافية تجريدية . انها عمل فني تتجمع فيها المعاني كلها تتمثلها حقيقة واقعية تسري في مجرى الحوادث والشخوص . ولذا نحن احرار ان نقراها كقصة جيدة وكوميديا تتناول حكايات الفروسية . ولكن سرفانتس نفسه قبل وفاته بقليل رفض غلط « العديد من جهال الناس » الذين عدوه « كاتبا مبهجا بشوشا » كرابليه (الكاتب الفرنسي) ... ان تاريخ النقد الذي تناول اعمال سرفانتس مغازة محيرة لاختلاف التفسيرات والشروح . وليس في مستطاعي هنا الا ان اضع بعض الخطوط الرئيسة عن مقدار فهمي لهذا العمل الادبي .

تمثل الفروسية المثالية الاخلاقية التي يجسدها دون كيشوت . والمنظر الشامل للشخوص في ارتباكه — هو عالم الناس الذي يجب مواجهته . بعض الناس قساة اراذل ، وبعضهم الاخر (كالدوق خاصة وجماعته) فاسدون اخلاقيا وسفسطائيون (فكريا) ، مع ما هم عليه من سلطة طفيلية غير مسئولة . وغيرهم كابنة أخت (الدوق) ومديرة شؤون الدار لا يفهمونه او انهم كمختلف القس وسامسون كاراسكوس خائفون ان يفهموه لئلا يقلق عالمهم الثقافي المريح . انهم يقنعون البطل بعدم وجود اغوال للقضاء عليها ولا ساحرات يأسرن عقول الرجال .

واما كل هذا تضيع المثالية وتجبن . انها يمكن ان تنازل الطواحين والا فلها التراب بين اقدام الثيران والخنازير . فهل يرينا سرفانتس ، كما يعتقد بعضهم ، الانهيار المحتم للمثالية في العالم الحديث ، عالم الصناعة والعلم الماديين ؟ لعل الرمز اكثر تعميما وابعد مدى في الخلود . ان (القصة) هي فوق الاطار التاريخي ، فهي ترمي للنظر الى سفر

الانسان ومصيره على هذه الارض : وهي – أذن – ملحمة الانسان مكتوبة نثرا .

دون كيشوت رجل مخبول ولما كان الخبال خطا اخذ (على عاتقه) تشويه العالم المحسوس والعالم الروحي . غير ان الجنون في الادب غالبا ما يكون رمز الحقائق ووسيلة نقلها ولا سيما تلك التي تعصى على الاسوياء(من الناس) . واذن فدون كيشوت ، من وجهة النظر هذه، بطل تراجيدي مؤمن بأن الانسان قادر على تكييف الحقيقة ومصيره نفسه على الصورة المثالية التي يختارها . ان بعضا من الارتباك النقدي مصدره دون كيشوت فهو بينما نجد مثله الاعلى في عالم القرون الوسطى نجده يعود إلى عصر النهضة في نظرته الإنسانية وتفاؤله المثير وفي ايمانه بقدرة الانسان على التصرف بنفسه . وهنا تعجز التفسيرات للوصول الى نتيجة . دون كيشوت رجل يحطم اغلال سجنه ويقف حرا تجاه الزمن – لقد استلهم من قصص الفروسية مثله ومعها حفنة من المفاتيح لتقييم الاعمال وتفسير الحقيقة بصورة منتظمة . ولكن مثاليته قريبة من نوع من الافكار الإفلاطونية الجديدة التي كانت سائدة في اوائل (النهضة) بما تمتاز به من تفاؤل . وهذا التفاؤل – في جوهره – انساني غير معاد للمسيحية على أي حال ، لكنه مكتوب خارج نطاق المسيحية . ان عظمة الانسان وتعاسته ظلتا غير معللتين لديه ، كما هي الحال في آثار كالديرون وباسكال بالطريقة المسيحية . لا يتردد دون كيشوت الى الكنيسة ابدا ولا يصلي . وفي ساعة امتحانه يتوسل الى «دولسينا» التي ترمز الى المراة الصالحة النقيـة ، الانسانة والمثل الاعلى . ان القصة لا تفتح إفاقا فوق الطبيعة ، ولا ترجو التطلع الى الغيب ، بل هي تدور حول هذا العالم لا العالم الاخر ، فيحل الخلق الذاتي محل النعمة . يحدثنا الفارس الجوال قائلا : « الفروسية هي دين وانا احارب بالطريقة الانسانية » لا يذهب دون كيشوت (الى اي مكان) وحيدا بل يأخذ معه سانخو بانزا ، التلميذ والخادم . ان التناقض المطلق التقليدي بين الاثنين ليس دقيقا تماما . فالسيد عنده معايبه الانسانية والخادم لديه نزواته المثالية الرفيعة. يمثل سانخو الانسان الإعتيادي . فهو ، في حالته الفطرية، غير المتفلسفة ، الساذجة ، له رذائل طبيعية انسانية . (على الضد من فساد المدنية المجلدة) كما لديه فضائل طبيعية ايضا . انه الوحيد الذي يحب بل يؤمن نوعا ما بسيده .. ويتفتح لتمثل المثالية ويصبح انسانا بعد ان كان مخلوقا وحشيا . وآاسفاه انه لا يتمكن ان يسير ابعد من ذلك ، لان ثمة عقبة غير قابلة للاجتياز هي عقبة انانيته الطبيعية . وهذا جزء لا يستاصل من الطبيعة ليكون الانسان انسانا وبنكران دون كيشوت لذلك يكون قد نقض قانونا من قوانين الوجود . والمسالة الاساسية (في كل الرواية) تتركز في الطلب الى سانخو بأن ينطرح على جلده الثخين ويجلد نفسه ويحرر جمال دولسينا (الانسانة والمثل الاعلى) من « سحرها » . وهذا ما لن يفعله سانخو ، لانه لا يستطيعه . وكما في « هاملت » والاثار الاخرى من تلك الحقبة ، يعد النوم والطعام رمزين مختارين للانسان في الانسان . يصور سانخو شرها ودون كيشوت زاهدا نابذا الجسد من اجل الروح . اما النوم فهو اشد اهمية في رمزية الرواية . ففي النهاية يكون سانخو قد وصل ذروة التطور البشري ثم عاد منها . ويكون كيشوت مضطرا الى إعادة الكلمات نفسها التي استخدمها مع خادمه في البداية وهي : « نم فانت ولدت من اجل النوم » وهذه كلمات تدل على الهزيمة والخذلان .

تاريخ دون كيشوت يتبع مسرى محددا معينا . فهو يبدأ بتجربة ارادته ضد العالم ويخدع نفسه كلما اصيب بهزيمة . وعلى الرغم من تفكيره المعقول وعودة صحبته اليه من وقت الى وقت، فان عملية خيبة الامل المستمرة تنسف بالتدريج ايمانه بنفسه وبالانسان الذي رافقه .

ثمة مظهر واحد من القصة يتعلق بطبيعة الواقع والمعرفة وهذا واضح في تعدد آفاقها . فالخداع والغش والتنكر مسطرة في الكتاب منذ البداية الى النهاية وهي مربكة ومؤذية ومخطرة لاي منا او للاخرين . ومع هذه الظواهر المتزحلقة ، فان التفسيرات الذاتية لا تستطيع تغيير الواقع الاساسي لانه صلب متين لا ينفذ اليه شيء . وهذا ما يتعلمه دون كيشوت عندما يصطدم به فيكسر جمجمته واضلاعه . والنتيجة جلية من كل هذا : اذا لم يكن الانسان قادرا على خلق الواقع وتغييره فهو لا يستطيع الفرار من سجن مصير محدد له . والمظهر الاخر يتعلق بالارادة الاخلاقية وهنا ايضا الانسان مقيد مع انه حر . فدون كيشوت الفنان الذي يعالج الواقع يخيب في كل محاولاته للابداع . ولما كان ابداعه الميتافيزيقي قاصرا عمليا إصبحت العمالقة والمظالم التي ينازعها غير ذات وجود . وفي حالتين حقيقيتين من حالة المظالم فشلت مساعيه لانه فشل بالاهتمام بحقيقة وجود الشر الذي لا يغلب بين الناس . انه يخيب مع سانخو الذي هو من اعظم مبدعاته ، ويخيب مع عبيد (السفن) الذين اعاد اليهم اعظم هبة هي الحرية . اما سامسون كاراسكوكا والقس – اي المثقفون الذين ينتحلون ملكية الحقيقة فهم فزعون من حملته الصليبية ، ولهذا نراهم يعزمون على اعادته الى « سلامة عقل » الدنيا كما هي من اجل مصلحته بالذات . هذا العالم كما هو ،

عالم الناس كما هم لن يتقبل افاقه الميتافيزيقية ولا مثله الاخلاقية ، كالحرية والمسئولية والعدل والتفوق على الاخرين بتكريس النفس لقضية معينة . وبكلمة فان الكيشوتية هي هذه المحاولة الثنائية للابداع ، المحاولة البطولية والسخيفة معا تلك التي سخر منها العالم وعاقبها لانه حط من شأن البطل (القائم بها) . ومع ذلك وبكثير من الحق فان العالم هو المصيب والبطل هو المخطىء كما تثبت ذلك افعاله بغير غموض .

ان طريق خيبة الامل واضحة المعالم ، فبسلسلة من الضربات تحطم ايمان دون كيشوت وارادته للعمل . وفي النهاية تحل بلادة الشعور محل حيوته كما هي الحال لدى (هاملت) . لقد انهار اساس القيم الذي يعطي معنى وتوجيها للعمل ، ولم يبق غير الموت . وهكذا يعكس دون كيشوت كهاملت مأساة الانسان الحديث. ان لوثر ومونتيني وماكيافيلي وغاليليو، حملة النظرة الجديدة للعالم وتشاؤمية عهد (النهضة) الاخير خرقوا فقاعة تفاؤلية (النهضة) الاولى . لقد وضعوا الانسان وجها لوجه امام الحقيقة الجارحة ، من هو في الحقيقة في العالم كما هو ؟ وفي النهاية يأتي التعقل والندم . لكن دعنا نتذكر ان دون كيشوت لم يتب فهو قد مات . اما الرجل الذي رفضه فهو الونسو كويخانو ، الشريف الاسباني المغمور الذي تقمص حياة خالدة في عملية ابداع خايت. وبمعنى فموته هو عقاب انزلته به الهة الانتقام (نيميس) عقابا لجنونه وتجاوزه على حدود الواقع وقوانين الوجود التي تحدد قدراتنا الانسانية . وبمعنى اعمق انه دليل تخبط الانسان في مطامحه ، يموت الونسو كويخانو حقيقة لانه لم يعد يعد مجنونا . وموته بهذا المغزى موت لكل البشر . وكما سال اونامونو (ينبغي ان نسال) : ماذا قدم الونسو كويخانو للعالم ؟ الونسو كويخانو الذي اعتقد ان الانسان الذي يضع لنفسه اسما هو اقرب الى الواقع من الانسان الذي تختاره الظروف . لقد انخذل وقبل العالم كما هو وكما يجب ان يكون . ومن هنا نراه يعترف بذنوبه ويبحث عن خلاصه بين احضان الكنيسة ، وهذا هو التعقل . قال دون كيشوت في خاتمة مطافه : يمكن الاستيلاء على السماء ولكن لا يمكن الاستيلاء على عالم البشر .

ماذا يتبقى للانسان من ذلك كله لكي يرنو اليه آملا ويعيش من اجله ؟ ان المثالي مدحور حتما ، لان الواقع لا يتغير ولا الطبيعة الانسانية . واحسن ما نملكه هو الفلسفة التي نبذها دون كيشوت لكونها ضد مطامحنا البشرية ، وهذه الفلسفة تتلخص بالشعار : « ازرع حديقتك » .. وهي فلسفة معينها بلسم لانانيتنا وتفاهتنا . وهذا هو مصيرنا الذي يجب علينا تقبله . ومع ان سرفانتس يعطف على دون كيشوت لانه الهمه بكثير من ذاته ، فهو يسخر منه دائما وينبذه ملتجئا الى الحياة فرارا من الكتب والخرافات . ان عظمتنا هي معرفة انفسنا ومعرفة خذلاننا

(تتمة المنشور في صفحة ٢٦)

وقد حاول الناصري ــ رحمه الله ــ في اواخر ايام حياته ان يطرق باب النثر الفني وينسج على منوال النابغة المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، فقلد وتعثر وتكلف وابتعد عن سجيته من ذلك رسالته « الى الخالدة » (٧). فقال الناصري :

« وهل اتاك حديث القلب يا سيدتي !! فلو ان طيرا شد الى ايكة سامقت جذعا ، وتفرعت اغصانا ، فما استطاع طيرانا ، وما استطاع انطلاقا ...

ايكون ذاك الطير باقل رفيف جناح من هذا القلب الذي بين حناياي ... او اخف اضطرابا من هذا الراعش بين ضلوعي ....

وهل اتاك حديث نبأ العواطف يا سيدتي ! ؟ فلو ان موجا اضطرب من فوقه موج ارتطم من فوقه سحاب مغدق يشد السماء الى الارض بامراس ماء فكانها قطعة من الكون الاكبر واحدة .. ايكون ذلك باقل من احتدام العواطف كي دمائي ، واضطرابها في افكاري الخ ... »

فانت ترى ان شاعرنا الناصري لم يخلق لهذا الميدان ، وانت ترى انه يقحم نفسه فيما لا تطاوعه فيه سجيته . لقد خلق هذا الانسان ليصبح شاعرا بكل معنى الكلمة في ميدان الغزل والوجدانيات . وان موته وهو في بداية فجر الكهولة يعد خسارة فادحة للشعر العربي . واذا علمنا انه مات كما يموت البؤساء المنسيون ، ادركنا اهمية تكريمه وقدرنا للاستاذ الاديب انور السامرائي الذي اخذ على عاتقه جمع شعر الناصري في ديوان ، جهده المشكور.

بغداد — حارث طه الراوي

مع ابتسامة (على شفاهنا) .

وما التراجيديا والمهزلة سوى مرآتين يرى فيهما الانسان نفسه حين يصل مرحلة الموضوعية العقلانية . انهما ضوءان على سطح واحد . فهزيمة دون كيشوت مأساة كل البشر، ومع ذلك فنحن نضحك منه . اننا ــ على التوكيد ــ لن نرضى بما رضي به سانخو بانزا او سامسون كاراسكوس . ذلك بان طبيعتنا تدفعنا دفعا الى الطموح اللانهائي ، والى الخبط على جدران تخومنا . واذا ما طرقنا على ابواب السماء وتنافسنا مع الالهة فسنكون بشرا اعلى من البشر . ان مأساتنا ليست في هزيمتنا حسب بل هي طموحنا النبيل ايضا اذ يجلب الضعة لنا ، وكل محاولاتنا البطولية للوصول الى العظمة تعد سخافة وتفاهة في أعين الالهة والناس على حد سواء . لقد رفعنا سرفانتس الى ملعب اولمبس لكي ترانا الالهة كما نحن ولكي نرى انفسنا نحن ايضا . لقد تمازجت التراجيديا والمهزلة في كل الاسطورة وفي الرؤيا الفنية المحيية .

بغداد — يوسف عبد المسيح ثروة

الغبطة الخالدة

بقلم عبد القادر زبيبة

كانت فوق دارنا القديمة، غرفة صغيرة منفردة ، وكانت تبدو بالنسبة لحينا المهلهل ، اشبه بالبرج الشامخ المطل على بقية الابنية ، التي هي اقل شأنا منه . وبالرغم من ان غرفتنا هذه ، كانت من الحقارة بحيث لا تبدو احسن مظهرا من بقية العمران الا ان جمالها الطبيعي وشموخها وسط الحي المتراعي ، والذي تعاني حجارته وسقوفه الخشبية من التفكك والانحلال ما تعانيه ، يوحيان للناظر اليها بأن هذا الحي على الرغم من حقارته ، لا يزال شاقا طريقه الى الفضاء باصرار .

ولم يكن ثمة بيت حديث في حينا هذا ، واكثر البنيان فيه متلاصق . فهو اشبه (بشلة) من الكهول جلسوا قرب الموقد في يوم من ايام الشتاء ، متساندين يغنون اغنية الغروب .

لم يكن هناك شوارع معبدة . بل يوجد ازقة ضيقة. تفوح رائحة العفن منها ، وتملأ الاوساخ ارضها، والذباب يمثل دور الكناري فيها .

حتى لتبدو الحياة مستحيلة في مثل هذا الحي القذر .

كنت احب غرفتنا هذه كثيرا ، بل كنت اعتبرها جزءا من كياني . فوضعت في ارضها مفرشا قديما ، ووضعت كتبي ايضا وفراشي وجميع ما كان يخصني من اشياء، ومع الايام اصبحت صلتي معها ضرورية ، ولا يمكن الاستغناء عنها . وكلما وجدتني فيها ، اشعر بالحرية والاستقلال ، حتى يخيل الي اني عالم قائم بذاته . واشهد ما كان يعجبني فيها نوافذها الثلاث المطلة على الحي . والتي كنت بواسطتها ارى عددا كبيرا من البيوت التي تقع تحتها مباشرة والبعيدة عنها ايضا .

وهكذا اتيح لي ان ارى واعرف ما لا يعرفه غيري من الناس عن احوال ساكني تلك البيوت ومشاكلهم وامورهم الشخصية البسيطة. فكنت ارى اشياء كثيرة ومثيرة احيانا ....

ثمة منظر خاص ، استحوذ على اهتمامي كثيرا ، فكنت اصرف فيه الجزء الأكبر من وقت المراقبة .

تحت النافذة الشمالية لغرفتي الميمونة ، يقع منزل مؤلف من ثلاث اقبية ، انهدم اثنان منها وبقي القبو الثالث تشغله ام محمد مع ولدها الوحيد وزوجها الكفيف الذي لا يقوى على جر قدميه الا قليلا ، بعد ان فقد بصره . كان السيد محمد يخجل جدا من فقره . وكان قلما يأتي الى البيت اثناء النهار الا عند السادسة ، حين انتهائه من عمله في صقل (الموزييك) بحجر (السمبادج) فيغسل وجهه ويديه ورجليه فقط، ويستبدل بثيابه الممزقة ثيابا نظيفة . ويمشط شعره امام المرآة القذرة المعلقة على الحائط ، والتي كانت من بقايا عرس أم محمد. ويذهب بعدها الى حيث يذهب ، ولا يأوي الى فراشه قبل الثانية بعد منتصف الليل وهو بحالة من السكر الشديد .

كان البيت فندق من الدرجة المئة، وامه الخادم وابوه المدير العام، وجنابه النزيل الوجيه .

ومن ميزات السيد محمد انه كان نافذ الصبر مع والدته حتى انها لا تجرا ان توجه اليه سؤالا واحدا عن حياته ما بعد السادسة ، خوفا من سبابه وشتائمه. وكثيرا ما كان يشكو كثرة اسئلتها ، ويؤكد لها بانه حر يفعل ما يشاء ، ليس هنالك قوة في الارض قادرة على ان تعترض طريقه.



حتى ولا رب العمل الذي كثيرا ما كان يكيل له الصاع صاعين حين يكثر الكلام معه .

اذن فالسيد محمد شخصية فذة في هذا البيت . وبالفعل كان السيد محمد فذا كما كان يقول . فكثيرا ما كان يسمع امه الالفاظ المقذعة ، حين يتكرم عليها ببعض الدراهم القليلة ، كمشاركة رمزية منه في اعانة البيت وكان ابوه يستمع الى كلماته القذرة بصبر . وماذا يستطيع ان يعمل له غير الدعاء ؟ ويؤكد بانه سيرجع في يوم من الايام عن غيه هذا وما فعاله الا طيش شباب فحسب .

وهكذا كان البيت اشبه بعتلة ثقيلة ، تحملها أم محمد على كاهلها بعزم وثبات . كانت تذهب الى بيوت الميسورين من الناس، وخاصة التجار الذين كان ابو محمد ينقل لهم البضائع حين كان (مكاريا) . فتغسل الاطباق وتنظف الخرق للاطفال ، وتكنس البيوت . وكثيرا ما تقص على سكانها الحكايات وسرد القصص عن ابي محمد حين كان شابا قويا مفتول العضلات ، وجنديا في جيش (بني عثمان) . وكيف كان محبوبا من قبل رؤسائه وكيف وصل الى رتبة (برنجي نفر) ... فكانت تضحكهم بتلك الكلمات، وخاصة عندما يسألونها بعض الاسئلة المحرجة ...

وكل هذه الاعمال التي تقوم بها ام محمد عند هؤلاء (الجماعة الكبار) ، كما كان يحلو لها ان تسميهم ، لقاء بعض الدريهمات القليلة والاطعمة التي بقيت من اليوم الماضي . فتحملها وتأتي بها الى البيت ، وعلى وجهها علائم النصر. لقد انتصرت في كفاحها هذا اليوم ، وحصلت على الطعام ، وليس هنالك شيء ذو اهمية الا رحمة الله .

وهكذا كانت مفاهيم أم محمد ، مزيجا من الطعام وعدم المرض والغفران .

وكانت على صلة وثيقة بأمي . وكثيرا ما كانت تزورنا بعد الظهر

وتصلي مع امي العصر والمغرب ؛ وتتلوان الاوراد والتسابيح، والذكريات (العصملية) احيانا .

وبهذا الشكل كانت الاسطوانة تدور يوميا . كنت اعجب لصبر هذه المراة العجيب . وارغب في التاكد منها ، هل هي راضية عن حياتها الى هذا الحد ؟ وحدث ذات يوم ان رأيتها من خلال نافذتي، تدخل بيتنا فشعرت بدافع يرغمني على النزول .

فتركت مملكتي ونزلت مباشرة الى حيث تجلس ، ولحسن حظي آنئذ كانت امي مشغولة في رتق ثيابنا وتعيد على مسامع اختي كيف يجب عليها ان تفعل ذلك والواجبات التي تنتظرها عندما تتزوج لانه لن يكن هنالك من يقوم بهذه المهمة غيرها .

وتوجهت الى ام محمد وبادرتها مسلما ، وسالتها عن صحتها وعن محمد وابي محمد ، ولمتها لانها لا تزورنا الا قليلا . وكنت اعلم في قرارة نفسي بانني (كاذب) . ولكن بديهتي لم تسعفني بطريقة افضل لادخل معها في الحديث . وسالتها مازحا بنفاق طبعا :

ماذا هيأت لنا من الطعام هذا اليوم ؟

فأجابت : لقد ذهبت الى بيت عمر آغا واعطوني وعاء مليئا بالشطاير المحشوة باللحم ، وقد اكلنا انا وابو محمد ولا يزال لدينا بعض منه . وصمتت لحظة ثم قالت : اتحب ان احضر لك شيئا منه ؟

فأجبتها : كلا كلا . . اني متخم ولا استطيع ان اضع شيئا في بطني ، مؤكدا لها انني سوف اتغدى عندها في المرة القادمة .

حتى تخيلت بأن المحاولة قد انتهت عند هذا الحد . ولكنها اخذت نفسا عميقا وقالت :

الحمد لله على نعم الله ؟ اللهم اجعلنا من عبادك الصابرين ولا تجعلنا من عبادك اللجوجين .

فسررت جدا لسماعي تلك الكلمات، لانها فتحت لي الطريق للدخول في الموضوع وسألتها : ما الفارق بين الصابر واللجوج ؟

فأجابت : اعلم يا ولدي ان الصابر او الفقير الصابر ، هو الخاضع لاحكام الله ، وهذا الذي سيدخل الجنة ويهيء له ربه من امره مخرجا . واللجوج هو الذي لا يملك الصبر على حكمة ربه وهذا هو الخاسر لرحمة ربه بلا شك .

فتعجبت اشد العجب ولم اصدق اذني فسألتها ثانية : خالتي ام محمد الا تتألمين لكونك فقيرة تعيشين على فضلات عمر آغا وغيره من الناس الذين لا يملكون الحق بان يكونوا احسن حالا منك ؟

فانتفضت مرتاعة كمن افاق من النوم وقد وجد على صدره افعى ، وقالت : استغفر الله يا ولدي ؟ هكذا شاء لي الله ان اكون فقيرة صابرة ؛ وهذه اكبر نعمة يجب عليك ان تعلم ان الفقير الصابر هو اول من سيدخل الجنة ، وهذا يكفي عن كل شيء ، وهل يجوز لنا ان نعترض احكام الله ونحن الضعفاء امامه ؟

وكانت تلك الكلمات تخرج من فمها بقوة وثقة بالنفس .

نظرت الى تلك المراة الصلبة باعجاب وقلت لها : اذا كان الفقير الصابر اول من سيدخل الجنة ، فليس هنالك من هو اولى بالدخول قبلك .

وهنا ابتسمت ابتسامة مشرقة تذكرني بنور الشمس الذي بزغ في صباح يوم من ايام الربيع مغطيا الحشائش والازهار ، بلونه المبشر بالامل والسعادة . وضاعت نظراتها في الافق البعيد . في اللامكان . وكانها ترى شيئا لا يستطيع ان يراه احد غيرها ، وتريد ان تعرب له عن سرورها وغبطتها . وترقرقت عيناها بالدموع وفاضت على خديها ، وكانها قطرات الندى البيضاء، تسقي شجرة الامل والرضى وقالت : شكرا لك يا رب .

اللاذقية　　　عبد القادر ربيعة

احبك

احبك انت نسيم الصباح　　　وبوح السواقي ، ونجو الزهر
احبك رغم العذاب الطويل　　　ويأسي المرير ، وحكم القدر
احبك يا من هواه بقلبي　　　عميق الجذور ، بعيد الاثر
احبك رغم شبابي النضير　　　وزحفك نحو خريف العمر

* * *

فانت حبيبي برغم ربيعي　　　فلست ابالي بطيف الخطر
ولست ابالي بوقع السنين　　　فعزمي اكيد يذيب الحجر
فيا من سمعت أنين الضلوع　　　بليل السهاد وغور السحر
اطل قليلا فان فؤادي　　　قنوع - حبيبي - برؤيا النظر

دمشق　　　سلافة العامري